عَلَى مِرْجَلِ الهَوى

الطبعة الأولى: 2020
الكتاب: عَلَى مِرْجَلِ الهَوى
الكاتبة: د. هبة عاصم
تصميم الغلاف: أمنية محمد
تدقيق لغوى: مروة محمود
إخراج فنى: محمود عنتر
رقم الإيداع: 7962 / 2020
الترقيم الدولى: 978 - 977 - 6689 - 42 - 8

٩ شارع المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوار مدارس حسام الدين الخاصة - فيصل - الجيزة

موبايل: 01126026691 - 01061813345
01009823984

عَلَى مِرْجَلِ الهَوى

روايـــــة

بقلم/ د. هبة عاصم

الإهـــداء

إلى من جعلني أذوب عشقًا للغة العربية...

معلمي الأول ... أبي الحبيب...

إلى مـن كانـت ومـا زالت سنـدًا لنـا وملاذًا آمنا...

أمي الغالية...

أدامكمـا اللّٰه فـوق رؤوسنـا، وجزاكما عنا خير الجزاء...

(١)

أكان لزاما عليَّ أن ألملم شتات نفسي وأرحل منذ ذلك اليوم؟

هل أخطأت عندما قررت الاستمرار هنا؟

كنت خائفة ومرتعبة... ظننت استمراري هنا يجعلني بمنأى عن الألم، ولم أكن أعلم أن الألم كله هنا!

****

«على جميع مسافري الرحلة «٥٠١» والمتجهة إلى نيويورك التوجه إلى بوابة»١«.

توجهت «هدى» إلى بوابة «١» إثر سماعها ذلك النداء، لملمت شتات نفسها وكفكفت دموعها لتصعد على متن الطائرة، ظلت تنظر للوراء مع كل خطوة تخطوها عَلَّهُ يأتي ويمنعها، لكن هيهات! سبق السيف العزل!

وبعد أن استقرت في مقعدها وربطت حزام الأمان، أغمضت عينيها وتمنت أن تحظى بسويعات قليلة من النوم الذي جفاها منذ يومين.

يومان كاملان لم تنعم فيهما ولو بلحظة واحدة من النوم، يومان شعرت فيهما وكأن دموعها قد جفَّت ولم يعد بداخل مقلتيها ولو دمعة واحدة، يومان سكبت فيهما الدمع أنهارًا كأنها لم تبكِ قبلا... لم تعرف هل كانت تبكيه أم تَبكي نفسها، كل ما كانت تعرفه أن قلبها بقي هناك مع دمعها المسكوب وكرامتها المهدرة، وأن سفرها هذا ليس هربًا من مواجهة لا تقدر عليها

حاليا، وإنما هو طوق نجاة تمسكت به من أجل يوم قريب قد يضيء حياتها مرة أخرى، تمسكت به من أجل مضغة تكونت بداخلها، وجُلَّ ما تأمله أن تنمو تلك المضغة، وتكون جنينًا، ثم طفلًا يأتي ينشر الدفء بين ثناياها، ويزهر زهورًا تنشر شذاها بين ربوعها، فهل يأتي؟

****

(٢)
البدايـة

بمجـرد أن أغمضـت عينيهـا، عادت بها الذاكرة إلى سـنوات مضـت، سـنوات لم يكـن هنـاك فيها ما يكدر صـفو حياتهـا، تذكرت أبيهـا وأمها، فانسـاب الدمع من مقلتيها وتمتمت: «ليتكما معي الآن، كم أحتاج أن أرتمي بـين ذراعيك يا أمي وأبكي! كم أحتاج أن أختبـأ خلفك يا أبي لتحميني كما كنت تفعل دائما! مصيبتي في فقدكما تزداد كل يوم عن ذي قبل!»

ومع ارتفاع الطائرة بين السحاب غرقت في النوم.

****

«هدى... هدى... استيقظي يا ابنتي».

«أمي! أهذه أنتِ؟».

مسحت أمها على رأسها مبتسمة بحنان قائلة: «ومن أكون إذًا؟ التمسي له العذر يا ابنتي، لو كنت مكانه لفعلت مثله».

شعرت بخيبة الأمل قائلة: «إذًا لستِ هنا حقا يا أمي!».

جاء أبوها وربت على ظهرها قائلا: «رددي خلفي يا غاليتي: الحمد لله الذي لم يجعل مصيبتنا في ديننا، انهضي يا قرة عيني واستعدي لما هو آتٍ، كوني قوية كما عهدتك دائمًا، واعلمي أن الله لن يضيعك».

فتحت عينيها... نظرت حولها وكأنها تحاول استيعاب المكان، نظرت إلى ساعتها لتجد نفسها قد غرقت في النوم لثلاث ساعات كاملة، مسحت

أثر النوم من وجهها وفركت عينيها، ثم اعتدلت في جلستها وطلبت شيئا تشربه، ثم نظرت إلى السحاب الذي يحتضن طائرتها بين جوانبه، وتركت نفسها للذكريات».

****

السلام عليكم يا عمي صالح.

مرحبًا بابنتي الغالية، أرجو أن تكوني قد هدأتِ قليلا.

الحمد لله على كلِّ شيء يا عماه.

سألها مبتسمًا: «أخبريني، أي رياح طيبة ألقت بكِ علينا؟».

دون أي مقدمات يا عمي، حان الوقت كي أعود لبيتي، فقد طالت فترة بقائي لديكم، كما أنني أرغب في العمل.

ما هذا الهراء يا هدى؟ هل ضايقك أحد؟ أخبريني من فعل هذا؟ أنت لست في حاجة للمال كي تعملي.

لا يا عمي، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل، لكن الوضع نفسه لم يعد مستساغًا، أكثر من أسبوعين وأنا أقيم معكم، ولست في حاجة لأخبر حضرتك أنه لا يجوز أصلًا، ورغبتي في العمل ليست لأجل المال، وإنما كي أشعر بذاتي وأشغل وقتي بما يفيد.

وهل الحل أن تمكثي وحدك؟

نعم يا عمي، هو كذلك، وأرجوك لا تطرح عليَّ الحل الذي أراه في عينيك، فإن كنت قد قبلته قبلًا لضعفي وقلة حيلتي، فلم أعد كذلك الآن، جدتي رحمها الله علمتني كيف أكون قوية.

رحمها الله وطيَّب ثراها، يبدو أنها قد أفهمتك الدرس جيدًا، ولكنك تعلمين أن الوضع مختلف وكذلك الأشخاص.

بالتأكيد أعلم ذلك وأثق به، لكنني لن أتزوج إلا إذا كان الزواج حقيقيًّا وليس اضطراريًّا.

ولكن يا ابنتي...

قالت مقاطعة: «أرجوك يا عمي، أنا لا أريد العودة لمصر تحت أي سبب من الأسباب، ليس لي أحد هناك كما تعلم، كما أنني عشت عمري بأكمله هنا، فلا تضطرني لذلك أرجوك».

هل وصلت الأمور لهذا الحد؟!

.....!

إذًا أخبريني فيم تفكرين؟

بالنسبة للسكن، فلو تسمح لي أن أعود لبيت جدتي في العزيزية، و ...

العزيزية! نحن هنا في جدة وأنت تريدين السكن وحدك في العزيزية؟! هل جننت؟!

يا عمي العزيزية ليست بعيدة عن جدة، كما أن اختياري للسكن فيها لعدة أسباب، أولها: أنني أريد أن أكون بجانب الحرم، فأذهب إليه متى أردت وخاصة في الفجر، والسبب الثاني: أن جدتي أوصتني أن ألازم بيتها حتى أتزوج وقد وعدتها بذلك، أما السبب الأخير فمرتبط بالعمل، فأنا أعلم أن حضرتك تمتلك مكتبًا للترجمة هناك، فاسمح لي بالعمل هناك، فكما تعلم أنني تخرجت في كلية الآداب قسم لغة انجليزية، كما أن حياتي مع جدتي في الولايات المتحدة لخمس سنوات قد حسنت من اللغة لدي كثيرًا.

يبدو أنكِ قد فكرتِ في كل شيء!

.....

ولكن هذا العمل لن يكون رسميًّا، فكل العاملين من الرجال كما تعلمين.

لا يهم يا عمي، يمكنني العمل من المنزل والذهاب للمكتب متى اقتضى الأمر فقط.

من الواضح أنك قد أعددت العدة لقرارك، لكن يا ابنتي إن لكِ في أعناقنا دينًا ولا ...

قاطعته قائلةً: «أرجوك يا عماه لا تقل ذلك، فالله وحده يعلم من منا المدين للآخر، لكن في النهاية لا يصح إلا الصحيح، والحقيقة أنه آن الأوان كي أعتمد على نفسي وأواجه الحياة».

فليفعل الله ما يريد يا ابنتي، ولكن اعلمي دائمًا أنني في ظهرك دائما لن أتركك ما حييت، ومن بعدي ابني «ماجد» لن يتركك أبدًا.

أطال الله في عمرك يا عماه، لا حرمني الله منكم.

إذًا تنتقلين مع مطلع الشهر القادم بإذن الله.

عفوًا عماه، ولكنني أريد الانتقال غدًا بعد إذنك.

غدًا!

نعم، فكلما طال اللقاء صعب الفراق.

الله المستعان، هل لديك أي أوامر أخرى؟

هو رجاء أخير يا عمي، لا أريد أن يعلم أحد في المكتب صلة القرابة بيننا، قدمني لهم مترجمة فقط، فلا أريد أن يكون هناك أي تمييز لي.

لا حول ولا قوة إلا بالله... كما تحبين يا ابنتي كما تحبين.

****

في صباح اليوم التالي، رن الهاتف في مكتب الترجمة،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مرحبًا شيخ صالح.

مرحبًا عادل، أنا في الطريق إليكم، أود مقابلتكم جميعًا في اجتماع قصير، قد تصل سيدة تدعى هدى قبل وصولي، هي مترجمة جديدة سوف تعمل معكم، وسوف تحضر معنا الاجتماع.

سيدة؟! ولكن يا شيخ صالح...

سوف أخبركم عندما أصل.

****

وصلت هدى مع الشيخ صالح إلى البيت أولًا، واطمئن أن كل شيء في البيت على ما يرام، ونبه على الحارس أن يهتم بشئونها ويقضي لها ما تحتاجه، ثم استودعها الله، وأخبرها أن تسبقه إلى المكتب الذي كان على مقربة من البيت لتصل قبله وتنتظره.

دخلت هدى إلى المكتب وسألت عن الأستاذ عادل، الذي رحب بها وأخذها إلى غرفة الاجتماعات انتظارًا لوصول الشيخ صالح.

لاحظت أن طاولة الاجتماعات تضم ثلاثة أشخاص غير الأستاذ عادل، أحدهم ينظر لها شذرًا، فشعرت بالاضطراب ودعت الله أن يثبتها حتى يصل الشيخ صالح، ومع سماعها لصوته في الخارج تنفست الصعداء وتسرب الهدوء إليها.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كيف حالكم جميعا؟ مرحبًا أستاذة هدى، متى وصلتِ؟

مرحبًا شيخ صالح، منذ حوالي ربع الساعة.

الأستاذة هدى سوف تعمل معكم من الغد إن شاء الله، بالطبع لن تعمل بشكل رسمي في المكتب، معظم العمل سيكون من المنزل وسيكون حضورها للمكتب وقت الحاجة فقط، ولكن في الفترة الأولى أفضل أن تحضر إليكم في المكتب يوميًّا لتتعلم ما ينقصها، وبالمناسبة هي تسكن معكم في نفس المبنى.

سرت همهمات بين الحضور، ثم قال أحدهم: «لست أدري سبب قرارك يا شيخ صالح، ولكننا لسنا في حاجة لمترجمات، والأفضل التعامل مع مترجمين يا شيخ صالح».

هذا قراري يا أستاذ أحمد، ولن أقبل أن يراجعني فيه أحد، وبالمناسبة سوف تكون مسؤولًا أمامي عن تعليمها كل ما ينقصها.

ماذا؟!

نظر إليها الأستاذ محمود متبسمًا وقال: «مرحبا بك معنا يا أستاذة، أنا محمود، المسؤول عن الشئون الإدارية والمالية للمكتب، هل عملت في الترجمة قبل ذلك؟».

مرحبًا بك، نعم، عملت مترجمة في مواقع تطوعية لثلاثِ سنواتٍ بعد تخرجي في كلية الآداب ثم توقفت.

ممتاز، لن نبدأ من الصفر إذًا، متى يمكننا البدء؟

الآن لو أمكن.

دعينا نبدأ غدًا، أما اليوم فللتعارف على الزملاء، الأستاذ أحمد والأستاذ عادل والأستاذ حازم، كل منهم متميز جدًا في مجاله، ولن يبخل عليك أحد منهم بعلمه.

شكرًا لكَ، ليفعل الله ما فيه الخير.

لفت انتباهها نظرات شذرة تخرج من عيني الأستاذ أحمد، على عكس الآخرين، لكنها تجاهلتها ودعت الله في داخلها أن ييسر لها أمرها.

انتهى الاجتماع وانصرف الجميع، ولكن الشيخ صالح استوقفها لتبقى.

وبعد خروجهم حدَّثها الشيخ صالح قائلًا: «فليحفظك الله يا ابنتي، يعلم الله أنني غير راضٍ عن ذلك، لكن راحتك عندي أهم مما أريد، اعتن بنفسك ولا تتردي في الاتصال بي متى احتجت ذلك، أنت لست وحيدة في هذه الدنيا، أنا معك بعد الله».

بكت قائلةً: «لا حرمني الله منكم يا عماه، أطال الله في عمرك وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة».

اسمعيني جيدًا، أحمد هذا صعب المراس قليلًا، لكنه أفضلهم خُلقًا وتربطه بماجد ابني علاقة صداقة، لكن اطمئني فلقد تحدثت مع ماجد ألا يخبره بشيء، سوف يتعامل معك بطريقة جافة وحادة ولكنه سيعلمك ولن يبخل عليك بعلمه، فتجاهلي أسلوبه وحاولي أن تتعلمي منه، ولو احتجت أي مساعدة شخصية فاطلبيها من محمود فهو شهم جدًا، وهو بالمناسبة زوج أخت أحمد، وزوجته في مثل عمرك تقريبًا وشقتها أسفل شقتك، ويسكن أحمد معك في نفس الطابق، عادل وحازم متميزان في عملهما ولكن لا أعرف عنهما أي شيء على المستوى الشخصي سوى أنهما غير متزوجين، فحاولي تجنب التعامل معهما خارج نطاق العمل.

شكرته هدى كثيرًا وودعته واستأذنت في الانصراف، فقال لها أخبري أحمد أن يأتي إلي.

وفي طريقها قابلت أحمد فقالت له: الشيخ صالح يريدك، نظر إليها شذرًا ولم يجب، واتجه إلى مكتب الشيخ صالح، الذي ابتدره قائلا: «أعلم أنك لا تفضل التعامل مع النساء، وأنك لا تثق فيهن البتة وأنك ترى أنكم لستم في حاجة لها، لكنها يا بني مختلفة وستكتشف ذلك بنفسك».

فوجئ أحمد بكلام الشيخ صالح، فتلعثم ولم يدر ماذا يقول، أطرق برأسه أرضًا قائلًا: «لله الأمر من قبل ومن بعد».

ربت صالح على كتفه قائلًا: «أنت تعلم أنك في منزلة ماجد ابني وأن علاقتي بك تتجاوز نطاق العمل، لكن كل ما يمكنني أن أطلبه منك الآن ألا تسيء معاملتها، وإذا كان يريحك أن تتعامل معها كأنها رجل فافعل، وهي لن تعترض على ذلك».

.....!

****

(٣)

استقرت هدى ببيتها في العزيزية لأول مرة منذ سنوات، دارت ببصرها فيه لتجده كما تركته منذ سنوات سبع!

دلفت إلى غرفتها وانهارت على سريرها تبكي، لا تدري هل اتخذت قرارًا صائبًا أم أنها قذفت بنفسها في بحر تلاطمها أمواجه ولا تجيد فيه السباحة، ظلت ما يقرب من الساعة على تلك الحال، ثم قامت فجأة وكأنما تذكرت شيئًا، اغتسلت وارتدت ثوبًا آخر على عجل وخرجت مسرعة توبخ نفسها لاستغراقها في البكاء ونسيانها الذهاب إلى الحرم، حدَّثت نفسها تلومها: كيف لها أن تنسى ما حضرت خصيصًا لأجله!

وعندما وصلت مكة، ودخلت إلى الحرم ووقع نظرها على الكعبة، نسيت الدنيا وما فيها، ذهبت في وادٍ آخر أخرجها منه صوت أذان المغرب، صلت ثم جلست تملي عينيها منها وتبكي.

ظلت هكذا حتى صلاة العشاء، صلتها ثم ألقت نظرة أخيرة على الكعبة وهتفت: «إلى اللقاء يا مهجة القلب».

خرجت من الحرم وكأنها ولدت من جديد، وكأن كل الأحمال التي كانت على عاتقها قد أزيحت، تذكرت أنها لم تتناول شيئًا منذ الصباح، لكنها قررت الذهاب للبيت لتتناول طعامها هناك.

وأثناء دخولها مبنى سكنها قابلت محمود وزوجته، ألقت عليهما السلام ودلفوا جميعًا إلى المصعد، عرَّفها محمود بزوجته «سارة» التي رحبت بها

ودعتها لزيارتهم لتتعرفا على بعضهما، شكرتها هدى على دعوتها ووعدتها بلقاءٍ قريب.

وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى المكتب؛ حيث أدخلها محمود لمكتبها وطلب منها بعض البيانات عنها وكذلك سيرتها الذاتية، أعطته ما أراد وبدأت العمل.

في البداية أرسل إليها أحمد بعض الأوراق لترجمتها، وأخبرها أنه اختبار ليعرف قدراتها ويحدد ما ينقصها، شعرت بالراحة لكونه أقل حدة من الأمس، لكنها ركزت في عملها وأنهت ما طلبه منها قبل الوقت المحدد.

نظر فيما قدمته وأضاف بعض الملاحظات، ثم قال: «ممتاز» يمكننا البدء إذن.

علمت في هذا اليوم أن أحمد هو المسؤول عن توزيع العمل بينها وبين حازم وعادل، عملوا جميعًا على ملف واحد في فريق وأظهرت من المهارة ما جعل عملها ينال استحسان الجميع؛ حيث تمكنوا من إنهاء عملهم مبكرا في هذا اليوم، وهو ما يعني انتهاء الدوام قبل موعده بساعتين، فتحدَّث معها محمود قائلًا: «بهذه المناسبة السعيدة، هلَّا لبيتِ دعوة زوجتي وأتيتِ وزوجك اليوم لزيارتنا لنتعرف على بعضنا بعضًا؟».

حاولت التهرب من ذلك لكنه أصر، فوعدته بالحضور بعد صلاة العشاء.

خرجت من المكتب واتجهت لمكة، صلت العصر والمغرب ثم عادت إلى البيت وقد اشترت هدية تأخذها معها وصعدت لبيتها، اغتسلت وارتدت ثوبا آخر ثم نزلت إليهما.

فوجئت بأحمد يفتح لها الباب، اهتزت قليلًا ثم ألقت عليه السلام

فدعاها للدخول، استقبلتها سارة مرحبة وجلسوا جميعًا معًا تبادلوا الأحاديث والضحكات عدا أحمد الذي ظل صامتًا وكأنه مجبر على الجلوس، سألتها سارة عن سبب عدم حضور زوجها، ولم يعد هناك مفر من الإجابة، فأجابت: «أنا مطلقة».

لحظات من الصمت مرت عليهم كسرها أحمد قائلًا: «هل تعيشين وحدك هنا؟».

نعم.

سألها محمود: «لقد عرفت من أوراقك أنك مصرية مثلنا، ومع ذلك لهجتك سعودية وتعيشين هنا وحدك، كيف ذلك؟».

ردت قائلة: «ولدت هنا وعشت عمري بأكمله هنا، مات أبي وأنا صغيرة وماتت أمي قبل سبع سنوات، تزوجت بعدها من رجل سعودي، ودام زواجنا تلك الفترة حتى حدث الطلاق منذ أقل من عام.

رد عليها أحمد بقسوة: «أي أنك وحيدة لا أهل لك!».

نظرت له أخته شذرًا ونظر له زوجها نظرة استهجان، هو نفسه لم يدر سببًا لتلك القسوة التي حدَّثها بها، شعر بالندم للحظات وخاصةً عندما ترقرق الدمع في عينيها قائلة: «الله معي»، وقبل أن تضعف استأذنت في الانصراف وصعدت إلى شقتها.

وعلى الرغم من دموعها إلا أنها نامت في هذا اليوم جيدًا، واستيقظت قبل ساعة من الفجر، ارتدت ملابسها وقررت الذهاب للحرم.

لمحها أحمد في الطريق، وتعجب أين تذهب في مثل هذا الوقت، أراد أن يسألها إذا كانت في حاجة لشيء ما ولكنه تراجع، يكفيه ما سببه لها من

حرج بالأمس، لكنه تابعها ببصره فوجدها تتجه لنفس وجهته... الحرم!

****

لصلاة الفجر مذاق خاص، لا يعرفه إلا من ذاق حلاوته، فما بال صلاة الفجر في الحرم!

وصلت هدى الحرم قبل صلاة الفجر بوقت يسير تسنى لها خلاله الطواف، طافت ثم جلست تملي عينيها من الكعبة انتظارًا لصلاة الفجر، ثم صلت الفجر ومكثت تقرأ القرآن وتسبح حتى الشروق، صلت الضحى وخرجت من الحرم وقد شعرت بروحها تحلق في السماء، انشرح صدرها وتهللت أساريرها، دعت الله من قلبها أن يرزقها الخير ويعينها على الدنيا وما فيها.

عادت لبيتها وتناولت الإفطار ثم انطلقت إلى العمل.

شغل العمل في المكتب جل وقتها، وبعد انتهائها من العمل يوميًّا كانت تذهب للصلاة في الحرم وتعود بعد صلاة العشاء.

قابلتها سارة في إحدى المرات وهي في طريقها للحرم، سألتها عن أحوالها وطلبت منها أن تسأل عنها لأنها تشعر بالملل الشديد وحدها مع انشغال زوجها وأخيها في العمل، وعدتها هدى بذلك ثم انطلقت.

سارت الأمور بشكل مستقر نسبيًّا في العمل، لم يكدر صفوها إلا العصبية غير المبررة من أحمد، أما زميليها الآخرين فقد حاول كل منهما التقرب منها خارج نطاق العمل، لكنها أوقفت كل منهما عند حده.

توطدت علاقتها بسارة وأصبحت تقضي معها ساعة يوميًّا على الأقل

وهو ما انعكس عليهما، فازدادت سارة إشراقا وازدادت هي سعادة؛ حيث شعرت بالألفة والصحبة الطيبة.

لم تنقطع عن صلاة الفجر في الحرم أبدًا، ولم تخبر أحدًا عن ذلك حتَّى سارة، لكنها لم تكن تعلم أن هناك عينان تراقبها وتحرسها كل يوم في طريقها... عيناه... عيني أحمد.

****

أثناء انشغالها يومًا في العمل، فوجئت بمن يطرق باب مكتبها، رفعت رأسها لتجد «ماجد» ابن الشيخ صالح أمامها.

ابتسمت لرؤيته ورحبت به ودعته للدخول، لكنه همس ضاحكًا: «أنا لا أعرفك ولا تعرفيني».

ارتفعت ضحكاتها رغمًا عنها لطريقته في المزاح، منذ أن كانوا صغارا وهو وحده الذي يمكنه إضحاكها.

قال لها: «فقط وددت الاطمئنان عليك، هل كل شيء على ما يرام؟».

نعم، الحمد لله، وأنتم كيف حالكم جميعا؟

وقبل أن يجيبها، دلف أحمد إلى مكتبها ونظر إليها شذرًا وقال: «أرجو أن تخفضي صوت ضحكاتك يا أستاذة، فنحن في العمل ولسنا في البيت».

امتقع وجهها وشعرت أنها على وشك البكاء، فتدخل ماجد قائلًا: «أين كنت يا أستاذنا، لم تكن في مكتبك، فجلست انتظرك هنا».

أجابه أحمد: «وها قد أتيت، تفضل معي إلى مكتبي».

وبعد ساعة ناداها أحمد: «ما هذا يا أستاذة؟».

خيرًا أستاذ أحمد، ما المشكلة؟

هل راجعت الملف المطلوب قبل إرساله؟

نعم، فعلت.

قال بحدة: «يبدو أن هناك ما يشغل بالك غير العمل، إذا لم يعد باستطاعتك التركيز في العمل، فالأفضل لك أن تمكثي في البيت، فلن يتحمل المكتب هذا الإهمال!».

واجهته قائلة: «أتمنى أن تنتبه لطريقة حديثك معي، ليس من حقك محادثتي بتلك الطريقة، يمكنك إخباري بما أخطأت فيه، وأعتقد أنه من الطبيعي مراجعة الملفات قبل تسليمها للعميل».

بالتأكيد لابد من مراجعة ملفاتك كي تتفرغي للضحك والمزاح!

شعرت أنها على وشك الانفجار، لكنها تمالكت نفسها وطلبت منه وقتًا لمراجعة الملف المقصود، فسمح لها بذلك.

الغريب أنها لم تجد فيه ما يستحق كل هذا الانفعال، أرسلت له الملف بعد مراجعته دون كلام واستلمه منها هو الآخر صامتًا.

وفي طريقها للخروج من المكتب سألها محمود: «هل يمكنك أن تسدي لي خدمة؟».

بالطبع أستاذ محمود وهل هذا سؤال!

أنا مضطر للسفر غدًا أنا وأحمد لثلاثة أيام مع الشيخ صالح، فهل يمكنك أن تمكثي مع سارة خلال هذه الأيام؟

شعرت بالاضطراب لسماعها هذا الخبر، ومع ذلك ردت عليه قائلة: «بالتأكيد يا أستاذ محمود، ولكن مع تعديل بسيط».

ما هو؟

أن تمكث هي معي في شقتي، والسبب في ذلك أن وجودي معها في بيتكما سوف يسبب لكلينا إحراجًا إذا عدتما في أي وقت، على عكس وجودها معي.

امممم... أقنعتني يا أستاذة، وهو كذلك، وشكرا جزيلا لكِ.

هل سيتوقف العمل خلال هذه الأيام؟

ليس تمامًا، سوف يباشر الأستاذ عادل العمل، ويوزعه بينك وبين الأستاذ حازم.

هل تأذن لي أن أعمل من البيت خلال فترة سفركم؟

كما تحبين يا أستاذة.

****

جفاها النوم ولم يغمض لها جفن، ظلت مستيقظة طوال الليل، استغربت نفسها، ظلت تفكر فيما حدث اليوم، لماذا عاملها أحمد بكل هذا الانفعال والحدة؟

حدَّثت نفسها، هل يمكن أن تكون غيرة؟ ولماذا شعرت بالاضطراب عند علمها بسفره؟ هل يمكن أن تكون قد أحبته؟

انتفضت لما أوصلها إليه فكرها، تمنت لو تذهب للحرم الآن، لكن مع الأسف لن يمكنها ذلك.

لم تكن من النوع الذي يهرب من الحقيقة، تعلَّمت كيف تواجه الحقائق مهما كانت صعبة. أمسكت مفكرتها وكتبت: «يبدو أنني أوشكت على الوقوع بحبه، ومن الممكن أن يكون هو الآخر كذلك، فإذا كانت بشائر هذا الحب قد بدأت تلوح في الأفق، فلابد من وأدها في مهدها، من في مثل حالتها لا يمكنها الارتباط إلا تحت ظروف خاصة جدًا، والآن وبما أنني لن أستطيع

التوقف عن العمل، فسوف أعمل من البيت، لن أذهب إلى المكتب إلا للضرورة القصوى، وسأتجنب أي لقاء معه».

ارتاحت لقرارها واستكانت، وسرعان ما خلدت إلى النوم.

****

استيقظت على صوت طرقات قوية على الباب، ارتدت «الإسدال» فوق ملابس نومها وهرعت لتفتح الباب.

فوجئت بسارة على الباب تصرخ فيها: «الحمد لله أنك بخير، قلقت عليك كثيرًا»، ثم استدارت لزوجها قائلة: «الحمد لله هي بخير، يمكنكما الذهاب».

لم تستوعب هدى ما يحدث فمازالت نائمة، ولكنها دعت سارة للدخول، ثم سألتها «ما الأمر، ولماذا هذا القلق؟».

هاتفك مغلق يا أستاذة منذ الأمس، وقد أخبرني محمود باتفاقه معك على أن نمكث معًا أثناء سفره وأحمد، ومنذ أن عاد وأنا أحاول الاتصال بك ولكن هاتفك مغلق، كما أن أحمد أخبرني أنه لم يسمع بابك يفتح منذ أن أتيت للبيت، والساعة الآن العاشرة صباحا، و ...

بهلع هتفت: «ماذا؟» العاشرة صباحا؟! يا إلهي توقعت أن تكون السابعة أو الثامنة على أقصى تقدير، آسفة لأني جعلتك تشعرين بكل هذا القلق، لكني ظللت مستيقظة حتى الخامسة صباحًا حتى تمكنت من النوم.

ولماذا كل هذ السهر، ثم غمزت قائلة: «اللي واخد عقلك».

ابتسمت هدى قائلة: «أكيد أنت طبعا».

ضحكت سارة وقالت: «أحاول أصدق».

قالت لها سارة أثناء جلوسهما معًا في المساء: «أما زلت مستاءة من أحمد؟».

فوجئت هدى بالسؤال، وقالت: «ولماذا أفعل؟».

أخبرني محمود بما حدث في المكتب.

هل يمكنني أن أحدِّثك صراحةً دون أن تخبري أحدًا عما دار بيننا؟

بالتأكيد يا هدى.

لا أعلم لماذا يتعامل أخوكِ معي بهذه الطريقة، فجأة أجده ينظر لي شذرًا أو يصرخ فيَّ بحدة، أحيانا أجده يتعمد إهانتي، وأحيانًا أخرى يتجاهل وجودي من الأساس، عمومًا لقد اتخذت قرارًا: لن أذهب للمكتب مرة أخرى، سوف أعمل من المنزل.

لا أعرف ماذا أقول لكِ يا هدى، لكن صدقيني أحمد ليس بهذا السوء، بالعكس تمامًا، لكنَّه مرَّ بتجربة صعبة في حياته غيرته هكذا.

لقد شعرت بذلك فعلًا، فليس أقدر على معرفة الألم إلا من اختبره، أشعر أن خلف كل صرخة ونظرة شذرة ألمًا عميقًا.

دون دخول في تفاصيل، تزوج أخي زيجة سيئة، آذته نفسيًّا أذى كبيرًا، وما لبث أن طلقها بعد أن أعطاها كل حقوقها، ولكن بعد خروجه من تلك التجربة تغير كثيرًا وفقد الثقة في معظم النساء.

وهل أنجب منها؟

لا الحمد لله لم ينجب منها، وهذا ما يسَّر له اتخاذ القرار.

قالت هدى بأسى: «يبدو أن الدنيا أصبحت قاسية على الجميع».

أنت أيضا يا هدى، أشعر أنك تحملين هما كبيرًا يختبأ خلف تلك الابتسامة، بصراحة شعرت بالتعجب الشديد عندما علمت أنك مطلقة.

أشاحت هدى بوجهها بعيدًا وقد ترقرق الدمع في عينيها، وقالت: «أخبريني، متى ستلدين إن شاء الله؟».

احترمت سارة رغبتها في عدم الخوض في حياتها وقالت: «ما زلت في الشهر الخامس»، وغمزت بعينيها «العقبى لك».

ضحكت هدى وقالت: «بعد أن أرى نتيجة التجربة معك»، هل ستلدين هنا أم في مصر؟

بل هنا إن شاء الله، سوف يقوم أحمد بعمل إجراءات استقدام لأمي، على ذكر أمي دعينا نحدِّثها حتى لا تقتلني.

ضحكت هدى قائلة: «أطال الله في عمرها وبارك لكم فيها».

****

(٤)

ثلاثة أيام مرَّت على هدى وسارة معًا، توطدت علاقتهما كثيرًا خلالها، كما توطدت علاقة هدى بوالدة سارة التي أخبرتها أنها بمجرد وصولها للمملكة سوف تدعوها لتناول غداء شهيًّا لن تنساه.

ضحكت هدى وشكرتها كثيرًا وقالت لها: «سوف انتظر وصولك يا خالة على أحر من الجمر».

استيقظت سارة يوم وصول زوجها وأخيها باكرًا، فوجدت هدى مستيقظة تعمل، أخبرتها سارة أنها ستنزل إلى شقتها لتعد لهما الطعام، قبلتها وانطلقت.

وفي المساء وجدت هدى أشياء تخص سارة في غرفتها، فقررت النزول سريعًا لتعطيها لها قبل وصولهما، فتحت بابها فوجدته أمامها، تسمَّرت في مكانها للحظة وهكذا فعل هو الآخر، ألقت عليه السلام وعادت لبيتها دون أن تنتظر ردًا.

هل رأت في عينيه شوقًا لها؟ ربما! وربما لا، لم تدر هل رأت ذلك حقًا أم أنها تتوهم، على كل حال لا فرق، فلو أن ذلك حقيقيًّا فستئده في مهده.

أما هو فقد دخل إلى بيته حائرًا، قبل أن تفتح بابها كان واقفًا أمامه وكأنه ينتظرها، هل كان مشتاقًا لرؤيتها حقًا أم أنه يتوهم! تحدَّث لنفسه: «لابد من أنك قد جننت يا أحمد، أي اشتياق هذا الذي تتوهم!».

****

وفي أثناء الاجتماع الذي عقده أحمد للمكتب بعد عودته، قال عادل: «الأستاذة هدى لم تأتِ للمكتب خلال الأيام الماضية، كانت تعمل من المنزل، وأخبرتنا أنها ستعمل من المنزل من الآن فصاعدًا، لذا نرسل لها الملفات المطلوب ترجمتها ثم ترسلها في الموعد».

رد أحمد: «هذا أفضل، خيرًا فعلت».

نظروا له جميعًا متعجبين من رده، وخصوصًا محمود الذي لم يدر سببًا لهذا العداء الذي يبديه تجاهها، حتَّى إنه في المساء نقل شعوره إلى زوجته التي قالت: «أخشى أنه يحبها!».

يحبها؟

نعم، أشعر أن وراء كل هذا الغضب مشاعر تكافح للظهور، لكنه يمنعها وأعتقد أن هذا سبب اضطرابه ومعاملته معها؛ إنه يخاف من تكرار تجربة زواجه.

ضحك قائلًا: «يبدو أن مشاهدتك للأفلام القديمة قد أثرت على تفكيرك».

سترى، وسوف تثبت لك الأيام صحة ما أقول.

****

ثلاثة أشهر مرت على آخر لقاء لها به، لم تره خلالها أو تحادثه، لكن على عكس ما توقعت، تأججت مشاعرها تجاهه حتى إنها أصبحت تجاهد نفسها ليل نهار حتى لا تحاول رؤيته.

سألت نفسها يومًا: «من قال إن البعيد عن العين بعيد عن القلب؟»، من قال تلك العبارة لم يحب حبًا صادقًا يومًا بكل تأكيد، لكنها لا تعرف...،

وماذا بعد؟

أجابت نفسها بحسم: «لا شيء»، إن كنت لم أستطع أن أمنع مشاعري، فعلى الأقل سأمنعها من الظهور، ولن أسعى لرؤيته حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

أمَّا هو فلم يكن صادقًا مع نفسه مثلها، بل كان يكابر ويكابر، الشيء الوحيد الذي لم يستطع منع نفسه منه، هو مراقبتها أثناء الذهاب للحرم في صلاة الفجر كل يوم، لم يعترف لنفسه أبدًا أن مرآها هو ما يبقيه هادئًا، وأن اليوم الذي لا يراها فيه يكون بالتأكيد أسوء أيامه.

زادت مقابلات سارة وهدى بعد مكوثها في المنزل، مع حرصها الشديد على تجنب مقابلته أيام الإجازات، كانت تقضيها جميعها في الحرم، بل كانت تذهب أحيانًا للمدينة دون أن تخبر أحدًا تجنبًا لدعوة تلقتها من سارة.

حادثتها سارة هاتفيًّا: «هدى هل استعددت؟».

استعددت لماذا؟

لقضاء اليوم على البحر، الرحلة التي دعانا إليها الشيخ صالح.

قالت بهدوء: «لا لن أذهب».

أغلقت سارة الخط وصعدت لهدى في شقتها، بادرتها قائلة: «إلى متى؟».

هدى: ماذا تعني؟

سارة: «أنت تفهمين ما أقول فلا تدعي غير ذلك».

لا، لا أفهم.

هل تظنين أنني لن أقولها لك صراحة؟

إلى متى ستتجنبين لقاء أخي؟

انتفضت هدى في مقعدها: «ما هذا الهراء يا سارة، لماذا أتجنب لقاء أخيك؟».

نظرت لها سارة بتمعن، وقالت: «لا شيء»، ولكن إن كنت مخطئة فاثبتي لي ذلك.

الأمر ليس هكذا ولكنها نزهة عائلية، كل من يعمل عند الشيخ صالح يذهب مع زوجته، فلماذا أذهب وحدي، ألا ترين الأمر محرجا لي؟

نعم، لا أراه كذلك، فالكثير من غير المتزوجين يأتون.

كلهم رجال، يمكنهم الجلوس معًا، أما أنا فلا.

سنجلس سويًّا، وسأعرفك على زوجات أخريات.

لكن يا سارة....

كما تحبين يا هدى، لكن هل لك أن تخبريني إلى متى ستظلين حبيسة تلك الجدران؟ هدى، أنا لا أعرف شيئًا عن حياتك الماضية، لكن ما أعرفه أن لك قلبًا كسيرًا مرَّ بتجربة صعبة تمامًا كأخي، تحكي العيون كل شيء في الفؤاد تخبأ يا هدى، لا تنسي ذلك، سوف أتصل بك غدًا بعد الفجر قبل تحركنا، أرجو أن تكوني مستعدة.

ظلت هدى متيقظة طوال الليل، كلام سارة يتردد في رأسها، لم تعد تعلم ما عليها فعله، سارة على حق، لن تظل حبيسة بيتها طوال عمرها وفي نفس الوقت لا يمكنها الانسياق وراء مشاعرها، دعت الله أن يلهمها الصواب، قامت لصلاة الاستخارة، وبعد انتهائها من الصلاة، رن هاتفها.

مرحبا عمي صالح.

أما زلت تذكرين أن لك عمًا؟

بالطبع، يا عماه كيف تقول ذلك؟

متى كانت آخر مرة اتصلت للسؤال عني؟

.....!

اتفقت مع محمود أن يحضرك معهم غدًا.

ولكن يا عمي...

لا أعذار، تصبحين على خير.

أليس تلك المكالمة دلالة الاستخارة؟

حمدت الله ودعته أن ييسر لها أمرها ثم خلدت إلى النوم.

وبعد صلاة الفجر استعدت، وانتظرت مكالمة سارة.

****

«عاش من شافك يا أستاذة»، قالها محمود باسمًا.

ألقت عليه التحية باسمةً، ثم نظرت إلى سارة التي لاحت على شفتيها ابتسامة خبيثة وقالت: «هيا بنا».

وقبل أن تركب سارة بجانب زوجها غمزت لها بعينها هامسة: «سنمر عليه عند نفق الحرم».

قال محمود لزوجته اركبي بجانب الأستاذة هدى حتى يركب أحمد بجانبي.

ردت عليه بخبث وهي تنظر في المرآة: «بل أجلس بجانب من أحب».

فهمت هدى ما ترمي إليه سارة وشعرت بالاضطراب الشديد، ولم تدر ماذا تفعل.

وعند النفق رأته واقفًا ينتظرهم، شعرت بقلبها يكاد يقفز من بين ضلوعها لمرآه.

فتح الباب الأمامي، وقال لأخته بلهجة حازمة: «ارجعي للمقعد الخلفي».

نظرت له أخته بتحدٍ وقالت: «لا بل اركب أنت فيه، سوف أجلس بجانب من أحب».

شعرت هدى برغبة عارمة في البكاء، وقبل أن تتحدث قال محمود: «هيا يا أحمد سنتأخر، اركب أرجوك، ألا تعرف أختك عندما تصر على شيء!».

تردد قليلًا ثم فتح الباب الخلفي وركب قائلًا: «السلام عليكم».

ردت في خفوت: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

قالت له أخته: «ألم يكن من الممكن أن تصلي الفجر قريبًا من البيت بدلًا من الحرم ولو ليوم واحد فقط؟».

«نعم، لم يكن من الممكن ذلك، وأحمق هو من يضيع صلاة الفجر في الحرم بلا سبب يستحق، أليس كذلك يا أستاذة؟».

أدركت أنه يعنيها بكلماته، لكن كيف علم أنها تذهب للحرم في صلاة الفجر، أيكون قد رآها، ولكنها لم تره أبدا».

أشاحت بوجهها ولم ترد، شعرت بنظراته تخترقها، أتراها نظرات شوق أم نظرات غضب؟

أما هو فقد كان يتمنى أن تنظر فقط إليه، أن تجعله يراها عن قرب، صحيح هو يراها كل يوم ولكن من بعيد من وراء حجاب، فالحقيقة هو لا يراها، هو يراقبها فقط، أشاح بوجهه هو الآخر، لم يعد يفهم نفسه، هل يحبها أم يكرهها؟ لماذا هذه الحدة التي تجتاحه كلما رآها عن قرب؟ لماذا يعاملها تلك المعاملة الجافة؟

وصلوا إلى الفندق، ذهبوا إلى غرفهم واتفقوا على أن يتقابلوا على

البحر بعد ساعة، كانت غرفة أحمد بجانب غرفتها، لم تدر أهي مصادفة أم أنَّ سارة ومحمود رتبا ذلك!

دق الباب، فتحت لتجد الشيخ صالح أمامها، رحبت به ترحيبًا كبيرًا ودعته للدخول، ولكنها لم تكن تعلم أن أحمد رآه وهو يدخل غرفتها، وأن شياطين الدنيا تلعب به الآن.

كيف حالك يا ابنتي؟ لم أتوقع أنك ستتمكنين من تركنا هكذا، ظننت أنها أيام وستعودين لنا، لكن يبدو أنك قد كبرت فعلًا.

وهل أكبر عليكم يا عمي! كل ما في الأمر أنني لم أعد أريد أن أكون عِبئًا على أحد، أريد أن تظل ذكراي معكم طيبة، كنت أعلم أنك سوف تزوجني من ماجد؛ لأنك تعلم أنه أكثر من يمكنه الحفاظ علي، لكن ماجد أخي ومشاعره نحوي لا تتجاوز ذلك، وعلاقتي بزوجته طيبة والحمد لله، لم أرد أن أضعه بين نارين: نار إرضائك ومسؤوليته تجاهي، ونار حبه لزوجته، آثرت الانسحاب إكرامًا لكم وردًّا لجميلكم.

الله يجزيك الخير يا بنيتي ويعوضك خيرًا عن كل ما فعلته، أخبريني... كيف حالك مع أحمد؟

سرت رعشة خفيفة في جسدها على ذكر اسمه، رعشة لاحظها الشيخ صالح وابتسم، قالت له لا شيء يا عمي، لا نتعامل مع بعضنا بعضًا إلا من خلال مراسلات العمل.

أعلم ذلك، هل تظنين أنني لا أتابع أخبارك وتحركاتك؟ أعلم أن آخر لقاء لك معه كان يوم حضور ماجد للمكتب والآن دعينا ننزل للجلوس على البحر، فالكل في الانتظار، فأنا أعلم كم تحبينه... البحر بالطبع!

عرَّفتها سارة على زوجات أخريات معهم، وقضين معا وقتًا ممتعا طوال النهار، لكن عيني هدى كانت تبحث عن أحمد وسط الجموع تلقي عليه نظرة بين حين وآخر، تألمت كثيرًا عندما رأته يضحك مع إحدى الفتيات، لم تعرف من هي تلك الفتاة، ولكن منبع ألمها أنها رأته يضحك، ربما لأول مرة منذ أن عرفته، مع فتاة! وقد كان هذا دليلًا كافيًا من وجهة نظرها على أن كل ما تشعر به كان وهمًا.

وفي المساء، جلسوا جميعا معًا، اقترح أحدهم أن يلعبوا لعبة، كان مزاجها معتلًّا ولكنها كانت مضطرة لمجاراتهم ولاسيما أن الشيخ صالح وماجد وزوجته كانوا حاضرين.

كان للفائز في اللعبة الحق في طلب أي شيء من الحضور، كان ماجد هو الفائز، فطلب من هدى أن تلقي قصيدة من غناء أم كلثوم، حاولت التملص، لكنه رفض وشجعها الجميع، صمتت قليلًا ثم قالت:

أكاد أشكُّ في نفسي لأني ... أكادُ أشكُّ فيكَ وأنتَ منّي
يقولُ الناسُ إنّك خنتَ عهدي ... ولم تحفظْ هوايَ ولم تصنّي
وأنتَ مُناي أجمعها مشتْ بي ... إليكَ خُطى الشّبابِ المُطمئنّ
يُكذّبُ فيك كلّ الناسِ قلبي ... وتسمعُ فيك كلّ الناسِ أُذني
وكمْ طافتْ عليّ ظلالُ شكّ ... أقضّت مضجعي واستعبدتني
كأنّي طافَ بي رَكبُ الليالي ... يُحدّثُ عنك في الدنيا وعنّي
على أني أُغالطُ فيك سمعي ... وتُبصر فيك غيرَ الشكّ عيني
وما أنا بالمُصدّق فيك قولًا ... ولكنّي شقيتُ بحُسنِ ظنّي
وبي ممّا يُساوِرُني كثيرٌ من ... الشّجنِ المؤرّقِ لا تدعني

تُعذّبُ في لهيب الشكِّ روحي وتَشقى بالظنـونِ وبالتمنّـي
أجبني إذ سألتُك هل صحيحٌ حديثُ الناس خُنتَ ألمْ تَخنّي؟
أكـادُ أشـكُّ في نفسـي لأنّي أكـادُ أشكُّ فيك وأنتَ مني.[1]

خرجت كلمات القصيدة من قلبها، ألقتها بإحساس وصل لكل من سمعها، وبعد أن أنهتها صفق لها الجميع على حسن الاختيار وحسن الإلقاء، وتبادل الشيخ صالح وابنه نظرات ذات مغزى، أما أحمد فقد أدرك أنها تقصده بتلك الكلمات، وأدرك أنها رأته مع الفتاة تمامًا كما أراد.

استأذنت لتصعد غرفتها حتَّى يمكنها الاستيقاظ باكرًا، وكذلك فعل الجميع بعد أن شكروا الشيخ صالح على اليوم الجميل، فأخبرهم أن هذا أقل ما يمكنه تقديمه لتفانيهم في العمل.

وبينما هي في غرفتها تتهيأ للنوم، سمعت صوتًا يأتي من الغرفة المجاورة يقول:

لا تكذبي... إني رأيتكما معا... ودعي البكاء فقد كرهت الأدمعا.

ثم صمت وقال:

«ويشب في قلبي حريق، ويضيع من قدمي الطريق، وتطل من رأسي الظنون تلومني وتشد أذني، فلطالما باركت كذبك كله ولعنت ظني لعنته»[2].

لم تفهم لماذا يلقي أحمد تلك الكلمات على مسامعها؟ هل يخبرها أنها كان يجب أن تقول تلك الكلمات بدلًا من ثورة الشك؟

وعلى الجانب الآخر كان أحمد يجوب أرجاء الغرفة وقد شعر أنه على

١- عبد الله الفيصل.

٢- كامل الشناوي.

وشك الانفجار، جهز حقيبته ومرَّ على أخته أعطاها لها وأخبرها أنه ذاهب لمكة لصلاة الفجر، وأنه سيلقاهما في البيت عند وصولهما.

قابلت هدى سارة ومحمود بعد صلاة الفجر وانتظرت وصول أحمد ولكنها تفاجأت عندما انطلقوا دونه، نظرت لها سارة وقد أحسَّت بما يدور برأسها، فقالت: «أحمد ذهب لمكة بعد منتصف الليل، ليلحق صلاة الفجر».

سألتها: «هل يداوم على صلاة الفجر في الحرم؟».

نعم، يحاول قدر استطاعته ألا يضيع صلاة الفجر تحديدًا هناك.

لا تدري لماذا شعرت في تلك اللحظة أنهما قد خُلقا لبعضهما... نفضت عنها ذلك الشعور وشردت في الطريق حتى وصلوا.

مرت الأيام وانشغل كل منهما في عمله، اقترب موعد ولادة سارة، وعلمت منها أن أحمد قد قام بإجراءات الاستقدام لوالدتها وأنها ستصل خلال هذا الأسبوع، وأن أباها قد حصل على تأشيرة عمرة كذلك.

ويوم حضور والدة سارة، سمعت هدى سارة تصرخ، فنزلت لها سريعًا لتجد أعراض الولادة قد بدأت في الظهور، اكتشفت في هذه اللحظة أنها لا تعرف أرقام هواتف أحد في المكتب، ساعدت سارة على النهوض واتصلت برقم ما وطلبت المساعدة.

حضرت سيارة الإسعاف وأخذتهما لمشفى قريب، وبعد دخول سارة لغرفة الولادة، اتصلت بماجد وأخبرته بما حدث وطلبت منه الاتصال بأحمد أو محمود وإخبارهما.

وبعد دقائق اتصل بها محمود وأخبرها أنه في الطريق إليهما مع والدة سارة، وأن أحمد قد ذهب لإحضار والده.

وبعد حوالي ساعة حضر محمود كان قلقًا كثيرًا، لكن والدة سارة طمأنته ورحبت هدى بوالدة سارة، وجلسوا جميعًا في انتظار الفرج.

ثم خرجت الطبيبة تخبرهم بمولد طفل جميل، وأن سارة بصحة جيدة.

حمدوا الله جميعا، هنأتهم هدى ثم استأذنت في الانصراف، أخبرتها والدة سارة أنها ما زالت عند وعدها لدعوة الغداء ولكن الظروف لم تساعدها، ابتسمت هدى وشكرتها ورحلت مع وعد بلقاء قريب.

كانت تتمنى لو رحلت من المشفى دون أن تراه، لكنها رأته على باب المشفى بصحبة أباه، نظرته الحادة ألجمتها فلم تقدر على التقدم للترحيب بوالده وخرجت من المشفى مسرعة.

استغلت هدى انشغال سارة مع مولودها وأهلها، فأرسلت للمكتب في ساعة متأخرة من الليل أنها في حاجة لإجازة لمدة أسبوع، كانت تأمل ألا يرى أحمد طلب الإجازة إلا في الصباح، وقد كان، ترددت قليلًا ثم أرسلت رسالة لسارة أنها سوف تذهب للمدينة لأيام ثلاث، كانت تعلم أن سارة لن تكون متفرغة لرؤية هاتفها، لكنها لم ترد لها أن تقلق عليها لو تذكرتها.

لم تنتظر الرد على طلبها، حزمت حقيبتها، لكنها لم تذهب للحرم في ذلك اليوم لأنها أصبحت على يقين أن أحمد يراها أثناء ذهابها للحرم، في هذا اليوم راقبته هي من خلف نافذتها وعندما اطمأنت لذهابه، أغلقت هاتفها وأخذت حقيبتها وانطلقت إلى المدينة المنورة.

قضت بين رحاب المدينة أجمل الساعات، فللمدينة إحساس مختلف، هواها طيب وله أثر لا مثيل له على النفس.

كانت تقضي يومها بأكمله في مسجد رسول الله بين رحابه، دعت الله

هناك أن ييسر لها أمرها ويهدي قلبها، سألت الله أن ينزعه من قلبها وألا يعلق قلبها بما ليس لها.

أما عن أحمد فقد كان في أسوء حالاته، ظل طوال عودته من الحرم يسأل نفسه لماذا لم تذهب لصلاة الفجر هناك؟ كان ساخطًا عليها كثيرًا في هذا اليوم بعد أن حدَّثه ماجد ليخبره أن هدى قد أخذت أخته للمشفى للولادة، وأنها لا تملك رقم هاتفه ولا هاتف محمود لذا حدثته ليخبرهما.

لم يعد يدري أهي على علاقة بماجد أم بأبيه، لقد رأى ماجد معها في المكتب وكانت تضحك بصوت مرتفع، ثم رآها تدعو والده لدخول غرفتها في الفندق، ثم لما أرادت الوصول إليه حدثت ماجد، كيف يمكن لها أن تكون على علاقة بهما معا! كان يتمزق من داخله، شكلها لا يوحي بما تفعله، ذهابها للحرم يوميًا يحيره، حياتها وحدها تحيره، حتَّى بعد أن علم أنها مطلقة وأن والديها قد توفيا، لم يتمكن من استساغة فكرة حياتها وحدها.

كيف يمكن لشخص ما أن يجمع كل تلك التناقضات! وعندما رأى الرسالة التي أرسلتها للمكتب لتخبرهم بالإجازة جن جنونه، أين ذهبت؟ ولماذا انتظرت حضور والديه لتطلب الإجازة؟ هل ظنت أنه لن يلاحظ غيابها لانشغاله مع والديه؟

كانت والدته قد أصرت أن تعود سارة من المشفى على شقته وليس شقة زوجها كما هي العادات لديهم، أن تقضي المرأة فترة في بيت أهلها بعد الولادة، وهو ما زاد من اضطرابه، فبعد أن اعتاد الهدوء والعيش وحيدًا، دبت الحياة في بيته، لو حدث ذلك في وقت آخر لطار فرحًا، لكنه في حاجة للهدوء.

وبعد عودته وقبل تناولهم للغداء، طلبت منه والدته أن يتصل بهدى

لتأتي لتناول الغداء معهم كما وعدتها، تعجب من طلبها وسألها عن السبب! أخبرته بوعدها لها، وأضافت: «ألم تنتبه أنها من أخذت أختك للمشفى، وأنها ما تركتها إلا بعد حضورنا؟ ألا تستحق الشكر على الأقل؟ كما أن سارة أخبرتني أنها وحيدة، ألا يمكنك أن تشعر بمشاعر شخص يحيا وحيدًا؟».

وهنا تدخلت سارة قائلة: «لا يا أمي، لن يشعر بذلك، هو لا يحسن إلا إهانتها!».

نظر لها شذرًا، مع نظرة الاستنكار التي وجهتها لها والدته قائلة: «إهانتها؟ سوف يكون لنا حديث آخر، اذهب الآن وادعوها للغداء».

ذهب مضطرًا، دق باباها لكنها لم ترد، عاد وأخبرهم بذلك قائلا بسخرية: «ربما هناك من دعاها لتناول الغداء».

التفت له والده بحدة، وقد قرر أنه لابد له من الحديث مع ابنه، فلم يعتد من ابنه إلقاء التهم جزافًا هكذا، لم يفعل ذلك حتى مع طليقته.

نزل أحمد للنوم مع محمود، فبكاء الصغير والحرب المتأججة في داخله تفقده القدرة على النوم مما يزيد من توتره.

وبينما هما يجلسان تحدَّث معه محمود بكل وضوح قائلًا: «إذا كنت حقًا تحبها كما تقسم على ذلك سارة، فتقدم للزواج منها، أما الطريقة التي تتعمد التعامل بها معها فلا تليق بك ولا بها».

وعلى الرغم من دهشته من كلام صهره، إلا أنه تظاهر بعدم الاكتراث قائلًا: «من تقصد؟».

ابتسم محمود قائلًا: «إذًا سارة محقة، أنت تحبها».

اسمعني يا أحمد، أنت صديقي قبل أن تكون أخًا لزوجتي، افتح لي قلبك

وحدِّثني عما فيه علك تجد عندي حلًا، لم يعتد أي منا أن يخفي عن الآخر ما يشعر به.

تردد أحمد قليلًا، ثم ألقى على مسامع صديقه كل ما يجيش به صدره، شعر وكأن جبالًا من الهموم قد انزاحت من على عاتقه.

أما محمود فقد صمت قليلًا ثم قال: «كلامك صحيح تمامًا بالنسبة لرجل أفقده الحب القدرة على التمييز».

ماذا؟

نعم، كل ما تقوله محبوك تمامًا من وجهة نظر محب، وخاصةً- ولا تستاء من كلامي- بسبب تجربتك مع زوجتك السابقة، أمَّا تلك المسكينة هدى فلا شأن لها بما تقول.

وقبل أن يحتد عليه أحمد استطرد قائلًا: دعنا نرتب القصة بشكل آخر...

الشيخ صالح رجل محترم جدًا، اسم على مسمى، صالح وهو صالح، نعرفه منذ عدة سنوات ولم نر منه ما يشين أو يدل على السوء، أمَّا ماجد ابنه فأنت أدرى به مني؛ لأنكما صديقان منذ أن قدمنا إلى المملكة وأغلب ظني أنه مثل أبيه.

أتانا الشيخ صالح يومًا ليخبرنا بقرار عمل هدى معنا، في العادة لم يتدخل يومًا في طريقة عملنا، لكنه في هذا اليوم لم يسمح لنا حتى بإبداء الرأي، كما فوجئنا بسكنها معنا في نفس العقار، ولكن يمكن تبرير ذلك أنه يوفر في هذا العقار السكن لجميع موظفيه في هذه المنطقة.

ظلت هدى تعمل معنا في المكتب لأكثر من ثلاثة أشهر لم نر منها سوءًا أبدًا، كما أن تعاملاتها مع سارة توحي بأصلها الطيب، وعلى الرغم من إهانتك لها عدة مرات إلا أنها لم ترد عليك يومًا، ولو فكرت قليلًا تجد أنها لو كانت على علاقة مشينة بالشيخ صالح أو ابنه؛ لكانت أخبرت أي منهما بما يحدث منك وبالتالي لم تكن لتستمر في عملك.

أنت تقول إنك تراها يوميًّا في صلاة الفجر في الحرم، وأنك تسير خلفها كل يوم ذهابًا وإيابًا، وتكون وحدها، وعلى الرغم من ذلك لم تعرف سارة أبدًا عن ذهابها اليومي لمكة رغم أنهما تتقابلان يوميًّا، أي أنها لا تفتخر بذلك ولا تفعله ليعرف أحد.

لكن تبقى رؤيتك لضحكها مع ماجد ورؤية الشيخ صالح يدخل لغرفتها موضع شك، ولكن لو ربطنا كل هذه الأحداث معا نجد أن التفسير الوحيد أنها تمت لهما بصلة قرابة، ولكن لسبب ما لا تريد أن يعرف أحد ذلك.

يتبقى أن أخبرك أن سارة تقسم أيضًا أن هدى تحبك وأن...

مقاطعًا قال هل أخبرتها بذلك؟

على حسب علمي لا، ولكن للنساء وجهة نظر سديدة في تلك الأمور.

وأين اختفت طوال الأيام السابقة؟ أليس من الممكن أنها تعرف أن سارة مشغولة لذا لن تبحث عنها، فاختفت دون أن يعلم أحد؟

هذا أيضا لا علم لي به.

رن الهاتف، فوجدها سارة تخبره أن يصعد لها بهاتفها؛ لأنها نسيته منذ أن ذهبت للمشفى، وبعد حوالي ساعتين، اتصلت سارة عليهما لتخبرهما

أنها بعد أن فتحت هاتفها وجدت رسالة من هدى أرسلتها لها قبل يومين تخبرها أنها ستذهب إلى المدينة لقضاء ثلاثة أيام.

وها قد علمنا مكان اختفائها؛ إن بعض الظن إثم.

إذًا، بماذا تنصحني؟

تحدَّث معها واسألها مباشرة عما يدور في خلدك، أو إذا أردت تحدَّث مع والدتك لتتحدث معها.

لا، لا أريد أن تتدخل أمي حاليًا، لكن كلامك منطقي حقًا، كيف لم أرَ الأمور هكذا من قبل؟

لأن الغيرة هي المحرك الأساسي لكل تصرفاتك.

هل تراني أحبها حقا؟

بل أراك تذوب فيها عشقًا، انتبه يا صديقي، فالأحمق فقط هو من يترك الفرصة تتسرب من بين يديه.

ظل أحمد طوال الليل يفكر في كلام محمود، لا ينكر أن ما قاله صديقه صحيحًا، لكن الأمر صعب عليه جدا، هل صحيح أنه يعشقها لهذه الدرجة؟ اتخذ قرارًا أن يحدِّثها بعد رجوعها، ولكن متى تعود؟

****

اقترب الأسبوع من الانتهاء، لكن هدى لم تكن ترغب في العودة، خرجت من المسجد النبوي بعد صلاة العصر، وفتحت هاتفها لترسل رسالة أخرى لتمديد الإجازة. بمجرد أن فتحت الهاتف، اتصل بها ماجد، ردت عليه فصرخ فيها: «هل تعلمين كم قلقنا عليك، أسبوع لا نعرف عنك شيئًا، كل ما نعرفه أنك في إجازة من العمل ولست في المنزل، هل تدركين حالتنا؟».

انتظرت حتى هدأ، ثم اعتذرت له، سألها عن مكانها فأخبرته أنها في المدينة، قال لها: «أنا في انتظارك في استقبال الفندق لا تتأخري، وأغلق الهاتف».

نظرت إلى الهاتف متعجبةً، أي استقبال هذا الذي يقصده؟!

انطلقت نحو الفندق لتجده ينتظرها في الاستقبال، ألقت عليه السلام وسألته كيف عرفت أنني هنا؟

أعرف أن المدينة هي أحب الأماكن لقلبك، وكنت على يقين أنك أتيت إليها طالما اختفيت، ولم يكن من الصعب معرفة الفندق، المهم أنني اطمأننت عليك، وقد اتصلت بأبي وطمأنته أيضًا، لا تفعليها مرة أخرى دون إخباري على الأقل.

ابتسمت له بامتنان قائلة: «لا حرمني الله منكما».

سألها: «متى ستعودين؟».

أخبرته أنها فتحت هاتفها الآن لترسل طلبًا للمكتب لتمديد الإجازة، فهي لا تريد العودة الآن.

نظر لها قائلًا: «كما ترغبين، لكن إلى متى الهروب؟».

انتفضت قائلة: «ماذا تعني؟».

نظر لها بتمعن وقال: «لا شيء».

ثم أخبرها أنه سيعود إلى جدة لارتباطه بالعمل.

شكرته لقدومه واعتذرت عن كل ما سببته لهم من قلق.

ومن خلف الباب الزجاجي، كانت هناك عينان تراقبهما في ألم وصمت، عيناه... عيني أحمد!

لم يشأ أحمد أن يترك والده يذهب للمدينة وحده مع رحلة العمرة، فأخبره أنه سيرافقه، لكن الأمر لم يكن فقط كذلك، فقد اشتاق إلى رؤيتها ولم يعد قادرًا على الانتظار.

لم يكن يعلم مكانها تحديدًا، ولكنه قرر أن يحاول علَّه يراها عند الحرم، وبعد أن صلى العصر ترك والده جالسًا في الروضة، واستأذنه في الذهاب للفندق والعودة وقت المغرب.

وأثناء خروجه رآها تتحدث في الهاتف، حمد الله أن يسر له رؤياه وقرر أن يحدثها، سار خلفها بعد أن أغلقت الهاتف، ليتفاجأ بانتظار ماجد لها في الاستقبال.

تسمَّر مكانه يراقبهما وقد ظن أنها أتت معه للمدينة، هل هي زوجته؟ هل تزوجها ماجد سرًا؟ ولماذا يفعل ذلك؟ الحال هنا غير الحال في مصر، يمكنه الزواج دون أن يلومه أحد.

توقف قليلًا ليتأكد من أنهما معًا حقًا، ثم انصرف وقد قرر أنها انتهت من حياته البتة.

وجد نفسه يعود إلى أبيه في الروضة، كان يشعر بسكين مغروز في قلبه، لماذا تفعل به ذلك؟ لماذا أخبرت أخته بمكانها إذا كانت قد أتت مع ماجد؟ لماذا؟!

ربت والده على كتفه، وأخبره أن يقوم للصلاة ويدعو الله بما يريد.

****

بعد شهر من مكوثها في المدينة قررت هدى العودة، استكان قلبها وهدأ، سوف تعود لتستأنف حياتها بشكل طبيعي.

تحبه؟ نعم تحبه، لكن سيظل هذا الحب حبيس قلبها إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وصلت بيتها وبمجرد أن وضعت المفتاح في الباب، فُتح باب شقته وسمعت والدته تقول: «حمدًا لله على سلامتك يا ابنتي، قد اطمأننت على ابنتي الآن برجوعك، يمكنني العودة الآن دون قلق».

التفتت هدى لتجد سارة ووالدتها على باب شقة أحمد، احتضنتها سارة ثم والدتها، لامتها سارة على تركها طوال هذه المدة، فردت عليها أنها لم تكن لتفعل ذلك إلا لعلمها بوجود والدتها.

ومن خلف ظهريهما رأته واقفًا ينظر لها باحتقار، تعجبت من تلك النظرة، لكنها سرعان ما طلبت من والدتهما أن تأتي لتناول الغداء معها غدًا، اعتذرت لها وأخبرتها أنها سوف تعود لمصر فجرًا، وأنها هي التي لابد أن تتناول معهم العشاء اليوم.

وقبل أن تنطق قال أحمد: «ولكننا مرتبطين بالذهاب لمكة اليوم يا أمي ولن نعود باكرًا، ولا تقلقي على الأستاذة، فيمكن للكثيرين دعوتها لتناول العشاء، بالمناسبة يا أستاذة لابد من حضورك للمكتب غدًا صباحًا لأمر مهم».

احتقن وجهها خجلًا من الإهانة، شكرت سارة ووالدتها وأسرعت لبيتها.

استدارت له والدته غاضبة، وقالت له: «يبدو أنك قد فقدت عقلك، هذه ليست المرة الأولى التي تكلمها بهذا الشكل»، أشاح بوجهه ولم يجب!

أما هي فقد أغلقت بابها عليها، وهي تسمع نبضات قلبها، ما سبب تلك النظرة التي رأتها في عينيه؟ وماذا يعني بـ «يمكن للكثيرين دعوتها للعشاء؟»، يبدو أنها مقدمة على معركة لا يعلم مداها إلا الله.

(٥)

استيقظت باكرًا، أو بالأحرى استعدت باكرًا للذهاب للمكتب، فهي لم تذق النوم طوال الليل، تفكر في كلماته... تُرى ماذا تخبأ لها الأيام؟

وهناك في بيت الشيخ صالح، دار حوار بينه وبين ابنه ماجد أخبره ماجد أن هدى عادت من المدينة أمس، فقال له والده: «لابد لي من الذهاب لمقابلة أحمد ووضع النقاط فوق الحروف معه، فلن أترك الأمور تصل إلى ما لا يحمد عقباه، خاصةً بعد أن أخبرتني أنك رأيته ينظر إليكما عندما ذهبت إلى هدى في المدينة».

هل تريدني معك يا أبي؟

نعم، استعد لتأتي معي.

****

وصلت هدى للمكتب، وفوجئت بوصول أحمد قبلها رغم وصولها باكرًا.

قال لها بسخرية: «كما توقعت تمامًا، أتيت من الحرم على المكتب مباشرة».

حاولت تجاهل نبرة السخرية في حديثه قائلة: «خيرًا يا أستاذ أحمد، أبلغتني أمس أنه لابد من حضوري للمكتب».

ببرود متعمد قال: «نعم، أردت إبلاغك بأنه لا مكان لك في المكتب بعد اليوم».

تمالكت أعصابها قائلة: «ولكني بالفعل أعمل من المنزل، أي أنني لا آتي للمكتب».

بقسوة رد عليها: «يمكنك المرور على الأستاذ محمود للحصول على مستحقاتك، ثم ابحثي عن عمل مع مكتب آخر».

قالت بهدوء: «وما السبب يا ترى؟».

نظر لها بتحد قائلًا: «لا سبب، فقط أنا أريد ذلك».

قالت: «وهل علم صاحب المكتب بهذا القرار؟».

أطلق ضحكة ساخرة عصبية قائلًا: «يمكنك أن تخبريه، لكن من منهما ستخبرين! الشيخ الكبير أم العاشق الصغير؟».

نظرت له باستهجان قائلة: «ماذا تقصد؟».

قال: «كما فهمت تمامًا».

أغمضت عينها تحاول أن تتمالك أعصابها قائلة: «أرجو أن توضح لي معنى كلامك حتى يتسنى لي الرد».

أطلق ضحكة أكثر استفزازًا ثم اندفع قائلا: «أريد أن أسألك سؤالا: كيف تمكنت من التلاعب بالشيخ صالح وابنه معًا، كيف أمكنك أن تكوني على علاقة بهما معًا، في الفندق يدخل الشيخ صالح غرفتك، وفي المدينة تجلسين مع ابنه في الفندق، بل السؤال الأهم كيف تفعلين ذلك مع ذهابك للحرمين وبجانبهما؟».

لم تستطع أن تتحكم في أعصابها أكثر من ذلك، وعلى حين غرة صفعته على وجهه قائلة: «هذه لعمي وابنه»، ثم صفعته مرة أخرى قائلة: «وهذه لعرضي الذي خضت فيه»، ثم اندفعت خارج المكتب ودموعها تتساقط أنهارًا لا تدري إلى أين تسوقها قدماها.

أما هو فقد أصيب بحالة من الذهول حولته إلى صنم لا يتحرك من مكانه، ثم سقط على أقرب مقعد واضعًا وجهه بين كفيه.

وفي الخارج رآها الشيخ صالح وابنه تخرج مسرعة باكية من المكتب، حاول ماجد اللحاق بها ولكن منعه أبوه قائلا: «يبدو أننا قد تأخرنا، دعنا نقابل أحمد أولًا».

وبالفعل دخلا المكتب ليجدا أحمد في حالة يرثى لها.

باغته ماجد صارخا: «ما الذي حدث، لماذا خرجت هدى من المكتب مسرعة وهي تبكي؟»، وأمسك بتلابيبه قائلًا: «أجبني».

هدأ أبوه من روعه، وفصل بينه وبين أحمد، ووجه حديثه لأحمد قائلا: «ما الذي حدث يا بني؟».

تمالك أحمد نفسه قائلا: «هل لي أن أعرف الرابط بينكما وبين هدى، أرجوك يا شيخ صالح أجبني؟».

وقبل أن يصرخ فيه ماجد، رد عليه أبوه قائلا: «ابنة أختي».

شهق أحمد قائلا: «ماذا!».

اجلس يا بني وقص عليَّ ما حدث.

قص أحمد على مسامعهما بخجل ما حدث قبل قليل، فاحمر وجه ماجد غضبًا وصرخ فيه: «أيها الأحمق، كيف أمكنك أن تهينها هكذا، من أنت حتى تتحدث معها بهذه الطريقة أو لتراقب تصرفاتها».

أما رد الشيخ صالح فكان غير متوقع، فقد رد بهدوء قائلا: «لم أكن أعلم أن الغيرة هي التي تحركك يا أحمد، كنت أظنك أعقل من ذلك، خيبت ظني بك وبرجاحة عقلك، لكن قدر الله وما شاء فعل، هل ترغب في الزواج منها؟»

انتفض أحمد من مكانه قائلا: «أتزوجها؟! وهل يمكنني ذلك بعد ما حدث؟».

قال ماجد: «كيف تطلب منه ذلك يا أبي، لم نأت هنا لنطلب منه الزواج منها، وكيف تأمن عليها معه بعد الذي قاله لها؟».

ضحك أبوه قائلا: «بخصوص الإهانة، فقد انتقمت لشرفها وصفعته حتى يفيق، أما بخصوص الزواج، فلأنه يحبها والغيرة هي ما دفعته لما فعل».

نظر إليه أحمد ممتنًا ثم أغمض عينيه خجلا مما فعل، وقال: «وهل ستقبلني زوجًا بعد ما قلته لها؟».

تحدَّث ماجد قائلا: «كنت أتمنى لو ترفض الزواج منك بعد ما فعلت، لكن مع الأسف ستوافق».

نظر إليه أحمد بتساؤل، فرد عليه محتدا: «وهل أخبرتنا أنت بمشاعرك تجاهها أم رأيناها بأعيننا؟».

هل يمكنني أن أتزوجها اليوم؟

اليوم؟ يبدو أنك لا تدرك ما تقول، أظننتها فتاة سهلة المنال؟ قالها ماجد بحنق.

أقسم لك يا ماجد أنني لم أعنِ ذلك، لكن لم أعد أطيق الانتظار، طوال الشهور السابقة وأنا أقاوم نفسي، أنت صديقي وتعلم التجربة التي مررت بها، والتي فقدت على أثرها الرغبة في التعامل مع النساء، مجرد التعامل، لكن أتت هدى واخترقت كل حصوني ودفاعاتي.

عندما رأيتها أول مرة، صوت ما تردد في داخلي وأنبأني بأنني خلقت لها، ولكني وأدت ذلك الصوت في مهده أو هكذا ظننت، كنت أجد نفسي

أسير ورائها يوميًّا إلى الحرم، وأقنع نفسي أنني ما أفعل ذلك إلا من باب المروءة، كنت أجاهد نفسي لأغض بصري عنها، لم أنظر إليها يوما نظرة مباشرة إلا حركت نظري بعيدًا متى انتبهت، كان يكفيني أن تكون في نفس المكان الذي أنا فيه حتى أكون سعيدًا حتى ولو لم نتحدث، ويومًا بعد يوم وجدتني غير قادر على الابتعاد، قاومت وقاومت، أفرغت فيها شحنات من الغضب والعصبية غير المبررة لمجرد أخطاء بسيطة في العمل، فكانت تنظر لي بتعجب وتصمت، وعندما قررت العمل من المنزل، أقنعت نفسي أن هذا أفضل ،»فالبعيد عن العين بعيد عن القلب كما يقولون»، لكني تيقنت من كذب هذه الكلمات، فعلى العكس تمامًا ازددت تعلقًا بها.

أتعرف! إذا سألتني عن ملامحها فلن أتمكن من الإجابة، أنا فقط أشعر بها يا ماجد، أعشق روحها، طريقة حديثها، لا أدري كيف يكون ذلك، لكنها الحقيقة، وبمرور الأيام تحول الحب إلى غيرة لم أستطع إيقافها، هل تذكر حينما دخلت إلى المكتب ووجدتها تضحك معك، لو كنت طاوعت نفسي في هذا اليوم لفتكت بك، ولعب الشيطان برأسي لما رأيت الشيخ صالح يدخل إليها، أنا أعرفكما جيدًا وأعرف حسن سيرتكما، لكن الغيرة أعمتني، وعندما حدَّثتك هدى لتتصل بي أو بمحمود لتخبرنا بأن أختي في المشفى، جن جنوني للدرجة التي أنستني أنها لا تملك هاتف أي منا، وعندما اختفت وذهبت للمدينة، ذهبت ورائها وفي نيتي أن أطلبها للزواج، ولكنني فوجئت بك جالسًا معها، اسودت الدنيا أمامي، تملكني الشيطان وصورها لي بصورة سيئة، قلبي رفض تلك الصورة ولكن عقلي لم ير غيرها، وعندما عادت أمس أخبرتها بأن عليها الحضور للمكتب باكرًا، كنت أريد أن أذبحها

كما ذبحتني، ولكنها صفعتني، لم تكن مجرد صفعة على وجهي بل كان ماءً باردًا جعلني كمن يستفيق من كابوس، واجهت نفسي للمرة الأولى منذ أن عرفتها، سألت نفسي ... كيف أمكنني الحكم عليها وأنا لا أعرف عنها شيئًا، وكيف وكيف وكيف، ثم دخلتما عليَّ وكان ما كان.

صمت ماجد تمامًا، بعد أن انتهى أحمد من حديثه الذي شعر فيه بصدق كل كلمة قالها.

أشاح بوجهه، ثم نظر إلى والده الذي كان منشغلًا بهاتفه، وكأنما ينتظر رده على ما سمع.

ترك الشيخ صالح الهاتف من يديه وقال لأحمد: «اذهب الآن وابدأ تجهيز الأوراق اللازمة لإتمام الزواج، علنا نتمكن من عقد القران اليوم».

أحقا ما تقول، ولكن هدى؟!

اذهب قبل أن أسحب كلمتي.

اندفع أحمد إلى الخارج، لم يكن قادرًا على تصديق ما حدث، أحقًا سيتزوجها اليوم أم أنه يحلم؟ اتصل بأبيه يخبره بملخص ما حدث ويطلب موافقته على الزواج قبل أن يبدأ في إجراءاته.

كان على ثقة من موافقته ولكن كيف له أن يفعلها دون علم أهله، فقبيل سفر والده أخبره أنه يشعر بأن الغمة السابقة قد انزاحت من قلبه وأنه عما قريب سيسمع ما يطربه، يومها سأله أحمد عما يعنيه، فغمز له وأشار لشقة هدى.

تهللت أسارير أبيه وقال: «ألم أخبرك بذلك؟»، جلجلت ضحكة أحمد عالية وقال لأبيه: «وهل هناك من يمكنه الغوص في أعماقي سواك يا أبي؟!».

ثم اتصل بمحمود وأخبره أن يخبر سارة وأن يكونا على أهبة الاستعداد،

سأله محمود عما حدث، فأخبره أنه سيحكي له كل شيء عندما يقابله.

أما هدى فقد خرجت من المكتب هائمة على وجهها، خرجت الدموع من قلبها، قادتها قدماها إلى الحرم، تعلقت بأستار الكعبة وظلت تبكي حتى هدأت نفسا، دعت الله أن يرشدها إلى طريق الصواب، اشتكت إلى الله ضعفها وقلة حيلتها، ثم جلست في ركن تجلس فيه دائما لتنظر إلى الكعبة، اعتادت دائما عندما تمر بمثل هذه الحالة أن تفتح المصحف بطريقة عشوائية وتقرأ الآية التي تقع عليها عيناها، تفعل ذلك مرات ثلاث لتعرف رسالة الله لها في ذاك اليوم.

تناولت مصحفا وفتحته لتجد: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾.[٣]

أغلقت مصحفها وفتحته مرة أخرى لتجد: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.[٤]

فعلت ذلك مرة أخيرة لتجد: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ ﴾.[٥]

أغلقت مصحفها وقد اطمأن قلبها تماما، ظلت تنظر إلى الكعبة، شاردة في رسائل القرآن لها اليوم، وجدت نفسها تلتمس العذر لأحمد فيما قال، وقد أخبرها عمها من قبل أن حياتها وحدها ستثير حولها الأقاويل، تذكرت كيف صفعته على وجهه، شعرت بالخجل لكنها لم تندم على ذلك، فيجب عليه أن يعرف عظم الذنب الذي أقدم عليه.

٣- سورة الرعد الآية ٢٨

٤- سورة القصص الآية ٥

٥- سورة القصص الآية ٧

تمنت لو كان لها صديقة تبث إليها همومها، لكن أمها وجدتها كانتا صديقتاها، وقد رحلت الواحدة منهما تلو الأخرى وتركتاها وحيدة، لها صديقة واحدة، لكنها في الولايات المتحدة. فكرت أن تتصل بماجد لتتحدث معه، لكنها لم تستسغ هذه الفكرة، صحيح أنهما قد نشآ معا، وتعتبره أخاها، ولكن دائما ما كانت أمها تخبرها أن لا صداقة بين رجل وامرأة، كما أنها لا تريد لأحد أن يحمل همها.

صلت ركعتين أطالت فيهما السجود ودعت الله أن يرشدها لطريق الصواب، أخرجت هاتفها لتعرف الوقت، فوجدته مازال مبكرًا وأن موعد صلاة الظهر يحين بعد ساعتين.

وجدت اتصالًا من ماجد واتصالًا آخر من الشيخ صالح ورسالتين، الرسالة الأحدث يطلب منها أن تستمع للتسجيل الذي أرسله لها في الرسالة الأولى ثم تتصل به، مع إشارة لها أن تضع سماعات الأذن إذا كانت في مكان عام.

قامت من مكانها لتخرج من المسجد، فلم تعتد أن تستعمل هاتفها فيه إلا للضرورة القصوى، ولثوانٍ معدودة. ذهبت لتشتري فنجانًا من القهوة من حول الحرم وضعت سماعات الأذن وجلست في الساحة الخارجية تستمع إلى الرسالة.

انتفضت لسماع صوته في أذنيها، كان يتحدث إلى ماجد، لم تفهم كيف التقى بماجد ولا كيف وصل هذا التسجيل لعمها، لم تكن تعلم أنه بمجرد أن بدأ أحمد الحديث، اتصل بها الشيخ صالح لتستمع لما يقال، ولما لم تجب سجل الحديث وأرسله لها، ارتجفت من رأسها حتى أخمص قدميها مما

يقول، هل يحبها حقًا؟ لم تكن تتوهم إذن! هو يحبها ويغار عليها، وما قاله كان بسبب الغيرة!

أسقط في يدها، لم تدر ما الذي عليها فعله، شعرت بالخجل الشديد مما سمعت، كانت تسمع نبضات قلبها تهزها هزًا.

سعيدة! بل ما تشعر به يتجاوز معنى السعادة.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، نعم لقد من الله عليها حقا بما أثلج صدرها، فلك الحمد والمنة يا الله.

لكن مهلًا! لماذا يطلب منها عمها الاتصال به؟ هل طلبها أحمد للزواج؟ فليس من المنطقي أن يخبر ماجد أنه يحبها ويغار عليها ثم يصمت.

انتفضت لمجرد الفكرة. لا، لا يمكن لذلك أن يحدث، هو لا يعلم عنها شيئًا، وربما لو علم لرغب عنها.

دار حوار بداخلها أو بالأحرى حرب داخلية، فقلبها يرغبه وبعد ما سمعه لم يعد يطيق الانتظار، أما عقلها فيخبرها أنه لا يمكن لهذا الزواج أن يكتمل.

رن هاتفها في تلك اللحظة، فانتبهت من شرودها.

«السلام عليكم يا ابنتي، كيف حالك؟».

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا عماه، بخير حال والحمد لله».

«أين أنت؟».

«في الحرم».

«عظيم، أنا في انتظارك في المكتب، لا تتأخري».

«ولكن يا عمي...».

«استأجري سيارة، لا تأتي سيرًا كعادتك، أريد أن أجدك أمامي بأسرع ما يمكن، لا تتأخري»، ثم أغلق الخط وكأنما يرفض إعطائها فرصة للجدال.

قامت من مكانها، دخلت للمسجد، صلت ركعتي استخارة وانطلقت.

وبعد حوالي نصف الساعة كانت تدخل من باب المكتب، كانت تتوقع أن تراه في المكتب، لكنه لم يكن موجودًا، وهو ما جعل اضطراب أنفاسها يهدأ، سلمت على عمها وعلى ماجد الذي باغتها بقوله معاتبًا: «بدلا من خروجك باكية، كان يمكنك الاتصال بي لآتي وأفتك به جراء ما قاله لك، ألست مسؤولا عنك؟».

أطرقت بوجهها خجلًا ولم ترد.

توجه إليها عمها بالحديث قائلا: «هل استمعت لما قال؟».

هزت رأسها أن نعم.

وما رأيك؟

.....!

تدخل ماجد قائلا: «أحمد يريد الزواج منك اليوم».

هتفت مرتاعة: «اليوم!».

تهللت أسارير الشيخ صالح بينما جلجلت ضحكة ماجد قائلا: «إذًا فالاعتراض على التوقيت وليس على الزواج».

تضرج وجهها بحمرة الخجل وغضت بصرها، فقد انتبهت لما قالته بعد أن نطقت به.

اقترب منها عمها قائلا: «اسمعيني يا ابنتي، أنا أعرف أنك تحبيه، كما أعرف أيضا أنه يحبك، لذلك أعطته كلمتي بزواجكما اليوم دون أن أنتظر رأيك».

قالت بحزن: «ولكن يا عمي ليس بالحب وحده ينجح الزواج؛ للزواج أسس متعددة، الحب أحدها لكنه وحده لا يقيم زواجا ناجحا».

«ولماذا تعتقدين عدم وجود تلك الأسس؟».

«لا نعرف بعضنا بعضًا يا عمي، وأنت تعرف أنني قد مررت بالكثير في حياتي، هو لا يعرف أيًّا مما مررت به».

«وهل تعرفين أنت عنه شيئًا؟».

«نعم، أخبرتني أخته بالكثير عنه وعن حياته السابقة».

«ومع ذلك، هو طلبك للزواج دون أن يكترث بما مضى».

«كلام فقط يا عمي، لكنك سمعت بأذنيك ما قاله عني».

«الوضع مختلف يا ابنتي، وقد أخبرتك قبلا أن حياتك بمفردك ستعرضك للقيل والقال، وما دفعه لما قال كانت الغيرة والجهل بالرابط بيننا، لكنه ندم واعتذر واعترف برغبته فيك، ولأصدقك القول: منذ أن شعرت أنك تميلين إليه ورأيت في نظراته لك حبًا، وأنا أدعو الله أن يجمع بينكما، فلن أجد من ائتمنه عليك مثله، وقد أخبرتك يوم أن دخلتي هذا المكتب أول مرة، أنه الوحيد الذي يمكنك الوثوق به، ومع ذلك إذا لم تكوني مستعدة للزواج منه، فلن أرغمك على ذلك، ولكن لن أسمح لك بالسكن وحدك بعد ذلك، وستأتين من اليوم للسكن معنا، وهذا قرار لا رجعة فيه».

أطرقت برأسها أرضا ثم قالت: «فهل يمكن تأجيل الزواج، أريد أن أتحدث معه قبلا».

لو وافقت، سيكون عقد القران اليوم، أما الزفاف، ففي كل الاحتمالات لن يكون اليوم، فأنت في حاجة للاستعداد وشراء فستان الزفاف، وكذلك

أنا في حاجة لبعض الوقت لإنهاء ترتيبات الاحتفال.

احتفال؟ لا يا عمي أنا لا أريد احتفالات، كما أنني لن أرتدي فستانًا للزفاف.

نظر لها بحدة قائلا: «ولم؟».

لا شيء، فقط لا أريد ذلك.

قال بحزم: «أسأت التصرف مرة دون علمي، ولن أسمح لك بفعلها ثانية».

أرجوك يا عمي...

انتهى الأمر، والآن أنا في انتظار سماع رأيك.

كما ترى يا عمي.

أرى أنك تميلين للموافقة ولكنك خائفة من شيء ما، فإن كان غير ذلك فأخبريني يا ابنتي رجاءً.

هلا أمهلتني دقائق للاستخارة؟

أومأ برأسه موافقًا، فقامت إلى غرفة أخرى لتستخيره تبارك وتعالى، عسى أن يجعل لها من أمرها خيرًا.

قلبها كان معه، لكنها خائفة مترددة، تخشى أن يتراجع إذا ما علم ما مرت به، أصبحت غير قادرة على تحمل فكرة أن تكون مرفوضة من أي شخص، لذا فهي تخشى الاقتراب، ترى الراحة في البعد عن الناس، لكن على الرغم من حرصها على ذلك، وجدت نفسها تهفو إليه، تمنته وتمنت قربه، ابتعدت حتى تنسى، لكن وجدت نفسها كلما ابتعدت اقتربت أكثر.

قامت إلى الصلاة، أطالت السجود داعية الله أن يقدر لها الخير وأن

يرزقها سبيل الرشاد، ثم دعت بدعاء الاستخارة، شعرت بسكينة تغزو قلبها بعد الانتهاء من الصلاة.

عجيب أمر الصلاة، تنتشلك من براثن الحيرة لتهدئ من روعك وتضيء ليل قلبك.

حقًا... أرحنا بها يا بلال!

وبعد انتهائها من الصلاة، طرق ماجد الباب ودخل، أخبرها أنه استغل انشغال أبيه في بعض أمور العمل ليتحدث معها، جلس أمامها وقال: «لن أحدثك عن مكانتك عندي، فأنا على يقين أنك تعرفينها جيدًا، منذ صغرنا وكل منا أقرب للآخر من بقية أخوتنا وأبناء عمومتنا، وحتى الممات سأظل مسؤولا عنك، أرعى شئونك ومصالحك، أعلم أن قلبك مع أحمد، علمت ذلك منذ أن أتيت إلى المكتب أول مرة بعد عملك فيه، ربما قبل أن تدركي أنت ذلك، كما أعلم أنه يحبك، فكما تعلمين هو من أصدقائي المقربين، وقد رأيت الغيرة في عينيه مرارًا وتكرارًا، صحيح أنه لم يخبرني؛ لأنه ظن أنني أكن لكِ مشاعر الحب أيضا، ولكنها كانت واضحة جدا بالنسبة إلي، وقد أخبرت أبي بذلك بعد ذلك اللقاء، لكن صداقتي له لن تطغى أبدًا على مسؤوليتي تجاهك، وقد كنت على وشك ضربه اليوم بعد أن أخبرنا بما قاله لكِ ولكن منعني أبي.

إذا أردت رأيي، فتزوجيه، أحسبه ممن نرضى دينه وخلقه، مشكلته الوحيدة من وجهة نظري في غيرته، وأعتقد أن هذه الأمور تهدأ بعد الزواج، لكن وجب عليك ألا تثيري غيرته، وأنا أعلم أنك لن تفعلي».

نظرت له بامتنان وقد اغرورقت عيناها بالدموع، هو محق في كل ما قال، وقد طمأنها إلى أنه سيظل لها سندًا، هل هذه دلالة الاستخارة؟

بخجل قالت: «هلا أخبرت عمي بموافقتي على عقد القران اليوم؟».

تهللت أساريره وخرج مسرعًا يخبر أبيه بموافقتها، وجد أحمد مع أبيه في انتظار ردها، فغمز له قائلًا: «مبارك يا عريس».

لو كان للسعادة شكلا لكان وجه أحمد هو المثال الحي على ذلك في تلك اللحظة. خرَّ لله ساجدًا وكأن حياته توقفت عند موافقتها.

ربت ماجد على كتفه مهنئًا وقال: «هدى تريد التحدَّث معك، اذهب إليها في الغرفة الأخرى».

استأذن من الشيخ صالح الذي أومأ له موافقًا، ثم ذهب إليها.

طرق الباب فأذنت له بالدخول، ألقى عليها السلام، وترك الباب مفتوحًا وجلس أمامها قائلا: «أنا آسف».

لم ترفع عينيها إليها ولكنها كانت تشعر أنه يسمع نبضات قلبها، وقالت: «لا عليك».

مرت فترة من الصمت، قطعها قائلا: «أخبرني ماجد أنك تريدين التحدث معي؟».

بعد تردد قالت: «في الحقيقة أريد أن أسألك عن سبب رغبتك في الزواج مني».

ابتسم بلهجة ذات مغزى وقال: «هل يمكنني إخبارك بعد عقد القران؟».

لم تنتبه لمقصده وقالت: «أخشى أن يكون السبب هو شعور بالذنب بسبب ما قلته لي و....».

انفجر ضاحكا وهو يردد: «الذنب!».

احمر وجهها خجلا، فحاول كتمان ضحكاته وقال: «لا لن أتزوجك من باب الشفقة ولا الذنب، لا تقلقي».

انتظرت حتى هدأت ضحكاته ثم قالت: «ربما خانني التعبير، ولكنك لا تعلم عني أي شيء، هناك ما يجب أن تعرفه عني قبل الزواج، فلربما غيرت رأيك بعد معرفته».

تنهد قائلا: «لا أريد أن أعرف أي شيء مضى، والشيء الوحيد الذي يمكنه تغيير رأي هو أن تخبريني بنفسك أنك لا تريدين هذا الزواج».

قالت: «اسمعني أرجوك، هناك أشياء ستعرفها عاجلا أم آجلا، فاسمعها مني الآن ف ...».

قال بتصميم: «هل لديك أسئلة أخرى أم أنك قد اكتفيت؟».

لدي رجاء وأرجو منك قبوله.

بل تأمرين وأنا أنفذ.

ابتسمت رغمًا عنها وقالت بخجل: «يصر عمي أن يقيم لنا حفل زفاف وأن أرتدي فستان زفاف، وأنا لا أريد ذلك، وقد نهرني عندما أخبرته بذلك، فهلا أقنعته؟».

نظر لها بتمعن قائلا: «وما سبب الرفض، أصدقيني القول، أمجبرة أنت على تلك الزيجة؟».

لا، الأمر ليس كذلك.

ترقرق الدمع في عينيها وقالت: «لا أدري إن كان سيمكنك تفهم ما أقول ولكني وحيدة، ليس لي أم ولا أخت ولا صديقة...».

أشفق عليها قائلا: «اعتمدي عليَّ».

نظرت له بامتنان وقالت: «أشكرك».

****

وفي المساء وبعد عقد القران، وجَّه الشيخ صالح كلامه لأحمد مازحا: «ما حدث الآن هو خطبة شرعية، لا مجال لما هو أكثر حتى إشعار آخر».

تصاعدت ضحكات الجميع، بينما احتضنت سارة هدى التي كان وجهها على وشك الاشتعال من شدة الخجل، وهمست لها ضاحكة: «اهدأي قليلا، واتركي الخجل للأسبوع القادم».

أما أحمد فقد كان كل ما يرجوه أن ترفع عينها لتنظر إليه، كان يريد أن يملي عينيه منها، لكم منع نفسه من النظر إليها مرارًا وتكرارًا حتى لا ينظر لها نظرة حرام، لم يكن يريد أي شيء في الدنيا سواها، لماذا وافق على تأجيل الزفاف؟ كان يجب أن يصر على أن يكون الزفاف اليوم!

رفعت عينيها إليه، فوجدته ينظر لها بحب، ابتسمت له ثم حولت نظرها إلى سارة سريعا.

استأذن أحمد من الشيخ صالح أن ينصرف مع هدى، فربت على كتفه قائلا: «هي زوجتك يا بني، لا حاجة لك بالاستئذان».

اقترب منها وهمس في أذنها: «هيا بنا».

ابتسمت له ثم انطلقا معا.

وبعد أن أصبحا معا، نظر إليها قائلا: «سألتني صباح اليوم عن سبب رغبتي في الزواج منك، وأخبرتك أنني سأجيبك بعد عقد القران، ألا ترغبين في معرفة الإجابة؟»، لم ينتظر ردها بل همس لها: «أحبك».

****

أوصلها أحمد إلى شقتها، فتحت الباب وهمَّت بالدخول، لكنه اعترض طريقها قائلا: «كنت أتمنى أن تعودي معي إلى بيتي اليوم، لكنك آثرت الانتظار، هل يمكنني معرفة السبب؟».

لم تستطع أن تجبه، لم تستطع حتى أن ترفع عينيها لتنظر إليه، ثبتت في مكانها، فلو تقدمت خطوة واحدة للأمام لأصبحت بين ذراعيه.

وضع يده أسفل ذقنها ورفع وجهها لتنظر إليه، بصوت مبحوح قالت: «أحمد أرجوك دعني أدخل».

ابتسم لخجلها قائلا:

وأجمل الحب ما تلقاه مختبئا خلف العيون حييا يرسم الخجلا

يؤجل الموعد المشتاق مرتبكا وقلبه خفقات تطلب العجلا[٦]

«يكفيني أن سمعتك تنطقين اسمي للمرة الأولى دون ألقاب»، طبع قبلة على جبينها، ثم أفسح لها الطريق.

دخلت مسرعة وأغلقت الباب قبل أن تنهار بين ذراعيه، دقَّ الباب قائلا: «تصبحين على خير»، ثم ذهب إلى شقته.

دخل وقد ترك قلبه على بابها، وكأن قلبه قد أبى أن يعود معه، فظل واقفا يترقب.

أما هي، فقد كانت تحلق في السماء بين أسراب الفراش المستطير، مسَّت جبهتها بيدها، وكأنما تتحسس أثر شفتيه عليها، استغربت نفسها، كيف أمكن لحبه أن يتغلغل بين ثنايا قلبها لهذا الحد؟ كيف أصبحت زوجته بين عشية وضحاها؟!

٦- أمير الشعراء أحمد شوقي

زوجته! الكلمة نفسها لها وقع غريب على أذنيها لم تألفه بعد.

استلقت على سريرها تحملق في اللاشيء، هل كان يجب عليها أن توافق أن يكون الزفاف اليوم، لا تدري لماذا رفضت!

****

استيقظت فجأة على صوت المنبه، من الواضح أن النوم غلبها وهي تحلق في اللاشيء، قامت واغتسلت وغيرت ملابسها لتتجه للحرم، فهذا موعدها، لكنها توقفت فجأة، ألا يجب عليها الاستئذان منه أولا؟

أمسكت هاتفها لتحدِّثه، لكنها اكتشفت أنها لم تحصل على الرقم بعد!

جلست لا تدري ماذا تفعل، أرسلت لسارة رسالة: «إذا كنت مستيقظة أرسلي لي رقم أحمد رجاءً».

ردت عليها سارة بوجه ضاحك: «يمكنك الذهاب إليه توفيرًا للمكالمة».

وعلى الرغم من أن سارة تمزح، إلا أنها حدثت نفسها بذلك، نعم سأذهب إليه، وماذا في ذلك؟

فتحت بابها واقتربت من بابه، لكنها تراجعت، كررت ذلك مرتين وفي كل مرة تتراجع قبل دق الباب.

قررت العودة، لكن قبل أن تغلق بابها فتح بابه في هذه اللحظة ضاحكا وقال: «ألن تحاولي مرة أخرى؟».

نظرت إليه قائلة: «كنت تراقبني!».

لم يستطع كتم ضحكاته، حتى أنها ضحكت لضحكه.

نظر إليها بحب وأمسك يدها وقال هيا بنا.

هلَّا أعطيتني رقم هاتفك أولا؟

أمسك هاتفه وأرسل لها رسالة مكتوبا فيها: «كيف السبيل إلى وصالك دلني!»

ابتسمت ثم انطلقا معًا تتشابك أصابعهم كما تشابك قلباهما، أخبرها أنه كان يسير خلفها كل يوم ذهابًا وإيابًا، وأن ذلك كان يزيده شوقا وحبا لها، لم يترك يدها من يده إلا عندما وصلا إلى الحرم، اتفقا على أن يتقابلا بعد الشروق في نفس المكان.

أطالت السجود تشكر الله على نعمته عليها، وتدعوه ألا يحرمها منه وأن يسبغ عليهما نعمه في السر والعلن.

ولم يختلف حال أحمد عن حالها، دعا الله أن يبارك لهما وعليهما ويجمع بينهما في الخير.

التقيا بعد الشروق وصلاة الضحى، تلاقت أعينهما قبل أن تتلاقى أيديهما، احتضنها بعينيه، ودَّ لو يغلقهما عليها فتظل معه للأبد.

ابتسم لها قائلا: « إذا ما رأت عيني جمالك مقبلا وحقك يا روحي سكرت بلا شرب»[٧].

أخفت خجلها وراء ضحكاتها قائلة بدلال: «من أنت؟».

رد قائلا: وقد أدرك ما ترمي إليه: «قتيلك»، قالت: «أيهم، فهم كثر؟»[٨].

ضحكا حتى دمعت أعينهما.

قالت: «لم أظنك تحب الشعر».

أحببته بعدما رأيتك.

٧- من شعر الغزل للمتنبي.

٨- من شعر الغزل لأبي فراس الحمداني.

لن يمكنني مجاراتك في حلو الحديث، ستغلبني بلا شك.

إذًا بما أنني قد غلبتك، فهيا لنتناول الإفطار معا.

ذهبت معه إلى أحد المطاعم، جلسا يتناولان الطعام، أخبرها أنه سيمر عليها بعد انتهاء الدوام ليذهبا معًا لتناول الغداء ثم الذهاب لشراء الشبكة.

ردت «الشبكة، أي شبكة؟».

ردّ متعجبا: «شبكتك بالطبع، فلم أحضرها بعد!».

ولكني لا أريد شيئًا.

وماذا عن المهر؟

ماذا عنه؟

ترك ما كان يتناوله من طعام من يده، ونظر إليها بتمعن قائلا: «لماذا يا هدى؟».

لماذا ماذا؟

أخبرتني أنك لا تريدين أن ترتدي فستانًا للزفاف ولا تريدين الاحتفال، ووافقت نزولا على رغبتك، والآن ترفضين شراء شبكة أو أن تطلبي مهرا؟

ردت ببساطة: «وماذا في ذلك؟ أما عن الفستان والحفل فقد أخبرتك عن السبب، وأما الشبكة والمهر، فالحقيقة أنني لم أفكر بهما من الأساس».

هدى، هل أنت سعيدة حقا بزواجك مني؟ هل تم هذا الزواج باقتناع منك؟

نظرت له بدهشة قائلة: «وهل فعلت أو قلت ما يتنافى مع ذلك؟ إذا كنت تريدني أن أرتدي فستانا للزفاف ونقيم حفلا، فسأفعل ذلك إرضاءً لك، أما عن الشبكة والمهر فلم أفكر فيهما، لست في حاجة لهما، ولم أعتد التفكير فيما لا حاجة لي فيه».

ما قصدته أنني أشعر أنني لم أوفيك حقك، كل ما قلتِ إنه لا حاجة لك فيه هو حقك، ويجب عليَّ أن أوفيك إياه، كنت لي حلما بعيد المنال وقد تحقق هذا الحلم فجأة بين عشية وضحاها بفضل من الله ورحمة بي، فكيف أشكره على نعمه وأنا لم أوفيك أبسط حقوقك؟

ترقرق الدمع في عينيها وقالت: «لكني لا أريد سواك».

تهللت أساريره وقال: «وأنا لك فلا تقلقي، أنت مني وأنا منك، فقط دعيني أكن مسؤولا عنك، لا تتهاوني في حقك وبالأخص معي، فهلا فعلت؟».

كما تحب.

ابتسم قائلا: «أحبكِ أنت».

****

عادا معا للبيت، أوصلها عند بابها وأخبرها أنه سوف يبدل ملابسه ويذهب للعمل، وقبل أن يذهب قالت له «أمن الممكن أن تترك لي مفتاحك؟».

غمز لها قائلا: «هل سأعود لأجدك في انتظاري؟».

ابتسمت بخجل قائلة: «أريد أن أرى ما ينقصنا لأحضره».

فتح الباب ثم أعطاها المفتاح قائلا: «كم أغبطه لأنه سيكون بين يديك».

****

(٦)

بعد أن ذهب أحمد للعمل، دخلت هدى بيته لأول مرة، شعرت بنبضات قلبها تهزها هزًا. شعرت وكأنه يضمها في أحضانه، توقعت أن يكون البيت غير مرتب، وقد كان، فمنذ أن وضعت سارة حملها لم تعد تستطيع الصعود لترتيبه.

لذلك فكرت أن تفعل ذلك وتفاجئه به، كما أرادت أن ترى ما يحتاج للتغيير قبل الزفاف. دخلت لغرفته، احتضنت ملابسه بين ذراعيها، وتراقصت بها في الغرفة، لم تدرِ متى ولد كل هذا الحب في قلبها تجاهه، كل ما تعرفه الآن هو أنها لم تعد تطيق البعد عنه، وأن القرب منه يعني تصالحها مع الأيام.

دار حوار بينها وبين نفسها:

هل أخبره بذلك؟

لا، لن يمكنني ذلك.

لماذا؟ هو زوجي، ولا يعيبني إن بحت له عما في قلبي.

ولكني بالأمس فقط طلبت تأجيل الزفاف.

كنت خائفة وقد زال خوفي بعدما اقتربت منه.

سوف انتظر حتى يطلب مني ذلك.

رن هاتفها معلنا وصول رسالة منه، فتحتها لتجد فيها:

«وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق»[٩].

٩- للمتنبي

ردت عليه قائلة:

«لقد دب الهوى لك في فؤادي دبيب دم الحياة إلى عروقي»[١٠].

ابتسمت وابتسم، فلقد أصاب سهم الحب قلبيهما وربطهما معا برباط متين، وتوج هذا الحب بميثاق غليظ.

أفاقت من نشوتها ونهضت لترى ما يجب عليها فعله.

انتصف النهار وقد أوشكت على الانتهاء من ترتيب البيت، غيرت أماكن قطع الأثاث وأضفت لمساتها على البيت.

فكرت أن تطهو له ليتناولا الطعام معا بعد عودته، ترددت قليلا ثم حسمت أمرها، بحثت في المطبخ، كتبت ما ينقصها ثم أحضرته من بيتها، وبدأت في الإعداد، قاربت على الانتهاء وكذلك اقترب موعد عودته.

ذهبت إلى بيتها اغتسلت وبدلت ملابسها ثم عادت لبيته، فكرت هل تقابله بحجابها أم بدونه؟ دخلت غرفته ونظرت في المرآة، خلعت حجابها ثم عادت وارتدته مرة أخرى، ربما تفعل ذلك في وقت لاحق.

جلست تنتظر حضوره، غفت في مكانها لتستيقظ على قبلة تطبع على جبينها، شعرت بالفزع لوهلة ثم ما لبثت أن شعرت بالخجل عندما وجدته قريبا منها لهذا الحد.

حمدًا لله على سلامتك.

اشتقت إليكِ.

هربت من عينيه، حاولت أن تقوم من مكانها لكنها تعثرت لتقع بين ذراعيه.

١٠- للمتنبي

وكأنه كان ينتظر، ضمها بين ذراعيه بقوة وكأنه لا يريد فكاكها، لم تبد أي مقاومة وكأنما وجدت مستقرها وملاذها بين ذراعيه، ظلا هكذا دون حراك وكأن كل منهما قد ذاب في الآخر فأصبحا جسدًا واحدًا، حتى رن جرس الباب فأيقظهما من سكرتهما.

قال بحنق: «لابد أنها سارة، من غيرها يهدم الملذات».

فتح لأخته الباب وأدخلها بحنق لم يخف عليها، غمزت لهدى وضحكت بخبث قائلة: «يبدو أنني حضرت في وقت غير مناسب».

ضحكت هدى وقالت: «بل في الوقت المناسب تمامًا».

تبادلتا الضحكات مع نظرة الحنق التي ارتسمت على وجه أحمد.

سألها بغيظ: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

قالت ضاحكة: «ألا يحق لي الاطمئنان على أخي وزوجته، ثم إنك قد أخذت مني نسخة المفتاح، وأريد استعادتها».

«الحمد لله نحن بخير، ولن أعطيك المفتاح مرة أخرى، وهيا اذهبي لزوجك وابنك».

لم تستطع أن تتمالك نفسها من الضحك، وغمزت لهدى قائلة: «ما رأيك أن أتصل بمحمود ليأتي ونتناول الغداء معا جميعا؟».

قالت هدى بترحاب: «فكرة رائعة، هيا اتصلي به».

احمر وجه أحمد غضبا، مما زاد من ضحكات أخته التي ما لبثت أن قالت: «اهدأ يا أخي، أنا أمزح معك فقط، سأترككما تتناولان الطعام وسأذهب أنا أيضا لزوجي».

ثم طبعت قبلة حانية على وجنة هدى ودعت لهما بالسعادة والهناء، وانصرفت.

أغلق أحمد الباب وراء أخته وعاد إلى هدى يسألها: «أين توقفنا؟».

ابتسمت هدى بخجل وقالت: «سأجهز الغداء».

اعترض طريقها ورفع وجهها إليه قائلا: «إلى متى الهروب؟».

نظرت له بشوق وقالت: «أجدني أهرب منك إليك!».

«فلم إذًا؟ لم أعد أطيق الانتظار يا هدى، أنت زوجتي، ولا يمكنني الاقتراب منك».

ضحكت بدلال قائلة: «لم تعد تطيق الانتظار بعد يوم واحد من العقد، فماذا لو طالت المدة؟».

يوم واحد؟! لا يا حبيبتي بل هي أيام طويلة منعت نفسي أن أنظر لك فيها نظرة حرام، لم أكن صريحا مع نفسي من البداية للاعتراف بحبك، ولكنك احتللت كل ذرة في كياني، أثناء العمل كنت أستفيق فجأة لأجد نفسي أنظر إليك دون أن أنتبه، فأقوم سريعا أتوضأ واستغفر، كنت أحاول تجنب التواجد معك في مكان واحد حتى لا تتلوثي بنظرة محرمة أنظرها إليك، كنت أنام فأراكِ في منامي تنظرين لي من وراء حجاب، وكأنك تستحثينني لآتي. شهور مرت خفت فيها عليكِ مني، وجاهدت نفسي جهادًا يفوق الاحتمال، ثم تقولين لي يوم واحد! هذا اليوم الذي تتحدثين عنه يشبه تمامًا الدقائق القليلة التي تسبق أذان المغرب في يوم شديد الحرارة، وانتظار الصائم للأذان ليشرب حتى يرتوي.

أحمد... أنا...

وضع إصبعه على فمها لتصمت وقال: «أنت حبيبتي وزوجتي وكل ما لي في هذه الدنيا».

تلامست شفتاهما، ولكن سرعان ما أبعدت هدى نفسها عنه، وهي تهمس: «أحمد أرجوك».

أمسكها بين يديه قبل أن تذهب وقال: «المرة القادمة لن تفلتي».

داعبت وجهه بأصابعها وقالت: «اتفقنا».

ابتسم لها وقال: «هيا لنتناول الغداء، أحضرت معي طعامًا شهيًّا، لم أرد أن نتناوله في الخارج لأني أحببت أن أطعمك بنفسي».

ثم حانت منه التفاتة تجاه الطاولة فوجد عليها أطباقا مغطاة، سألها بدهشة: «هل أحضرت سارة هذا الطعام؟».

بل طهوته أنا لك، أردتك أن تتذوق طعامي اليوم، لكن لا بأس سأحفظه للغد.

الغد؟ بالطبع لا، سنتناول ما طهوته اليوم، فيكفي أنه من يديك.

إذًا بما أنك لم تلاحظ أي شيء آخر، هلا أخبرتني برأيك في النظام الجديد للبيت؟

شعر بدهشة كبيرة، عندما نظر حوله ووجد أن كل شيء في البيت قد تغير مكانه حقًا، كيف لم يلحظ ذلك رغم قوة ملاحظته؟

يبدو أن رؤيتك قد سلبتني عقلي أيضا وليس قلبي فقط، فلم ألحظ أي شيء في البيت سواك، لكن للأمانة... هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بما يسمى لمسات المرأة في بيتها، سلمت يداك يا حبيبتي.

وبعد أن تناولا الطعام، أخبرها أن لديه مواعيدًا مهمة في المساء، واستأذنها في تأجيل موعدهما.

«لا مشكلة، سأذهب إذًا الآن لأنني أشعر برغبة شديدة في النوم».

«وأنا كذلك، أريد أن أنام قليلا قبل النزول مرة أخرى، ثم غمز لها قائلا: فلننم معا».

ضحكت وقالت: «في المرة القادمة».

جذبها بين ذراعيه وسألها: «أتعدينني؟».

ابتسمت بحياء ولم تجب، مما جعله يقول: «أعلم أنك لن تعدينني، لكنني أعدك أن تكون المرة القادمة كذلك».

أحمد أرجوك...

وضع يده على شفتيها مقاطعًا: «سوف أسافر اليوم لمدة ثلاثة أيام، وبعد أن أعود نتحدث بإذن الله».

اغرورقت عيناها بالدموع وهتفت بجزع: «تسافر؟».

أومأ برأسه وقال: «لم أرد أن أخبرك حتى لا أرى تلك النظرة في عينيك، لا أريد أن أرى تلك الدموع في عينيك أبدًا».

أرادت أن تطلب منه أن يأخذها معه، لكنها استحت أن تفعل، لم تدر ما الذي يجب عليها قوله، فآثرت الصمت، حاولت التملص من بين يديه، كانت تريد أن تذهب إلى غرفتها لتبكي وحدها، لكنه لم يفلتها، لم يستطع أن يفعل، لولا أنه لا يريدها أن تعلم سبب سفره لطلب منها أن تأتي معه.

عجيب أمر الحب حقًا، نظل نقاوم ونقاوم حتى إذا استسلمنا له انهارت كل حصوننا.

ظل أحمد طوال السنوات الماضية منذ انفصاله عن زوجته الأولى يبني حصونًا حول قلبه، لم يكن يسمح لكائن من كان بالاقتراب منه، حتى إذا

رآها أول مرة تصدعت حصونه دون أن يشعر، ظل يقاوم ويقاوم ويرمم ما تصدع منها، لكن في النهاية وجدها قد اخترقت حصون قلبه جميعها وتربعت فيه فانهارت مقاومته واستسلم.

أما هدى فكانت في انتظار الحب، كم كانت تحلم بمن تذوب فيه حبًا، لكن تجربة زواجها الأولى وأدت حلمها في مهده، انهارت أحلامها دفعة واحدة، وبعد طلاقها سارت بها الحياة كما شاءت حتى رأته، منذ أن رأته أول مرة نبض قلبها بعد أن ظنت أنه لم يعد بإمكانه ذلك.

لكنها ظلت تقاوم وتقاوم، لم ترد أن تتعلق بوهم أو حب من طرف واحد، ولكن في النهاية انتصر الحب على الخوف.

****

(٧)

اتصل أحمد بالشيخ صالح وأخبره بما ينوي فعله، واستأذنه في التغيب عن العمل لثلاثة أيام.

طرب الشيخ صالح بما سمع، ووافق على ما قال، وفي اليوم التالي وصل أحمد للغردقة، اتفق مع المنظمين الموجودين في الفندق على تجهيز حفل عشاء صغير لعدد محدد من الأفراد، وحجز إقامة كذلك وأنهى جميع الاستعدادات.

أما هدى فقد مرت عليها الأيام كئيبة، لم تخرج فيها من غرفتها إلا لتفتح الباب لسارة التي صعدت للاطمئنان عليها، لم يتصل بها أحمد سوى مرة واحدة، تلاعبت بها الأفكار السيئة، هل تركها؟ هل أصابه مكروه؟ حاولت الاتصال به ولكن هاتفه كان مغلقًا.

وعاد أحمد في مساء اليوم الثاني، تردد في الاتصال بها خشية أن يقلقها في هذا الوقت المتأخر، وقف أمام بابها، لم يدر ماذا يفعل، لكنها فتحت الباب فجأة لترتمي بين ذراعيه وتبكي، جزع عندما رآها على هذه الحالة، حملها وأدخلها إلى البيت وظل يهدئها حتى هدأت، لم يكن يتخيل أن يجدها في تلك الحالة.

صحيح أن سارة أخبرته أن هدى قلقة عليه وفي حالة سيئة لغيابه، لكنه لم يتوقعها هكذا.

وبعد أن هدأت تمامًا سألها: «هلا أخبرتني عما أوصلك لتلك الحالة؟».

نظرت إليه وقالت: «لم تتصل بي سوى مرة واحدة، حاولت الاتصال بك لكن هاتفك كان مغلقًا، كنت أريد أن أطمئن عليك».

هل قلقك عليَّ فقط هو ما أوصلك لتلك الحالة؟!

نظرت إليه بحزن، كانت تتوقع أنه سيشعر بما عانته في بعده، أو ربما ظنت أنه افتقدها كما افتقدته، لم تدر بم تجبه وكفكفت دموعها وقالت له: «حمدًا لله على سلامتك، لابد أنك متعب كثيرًا وتحتاج للراحة، آسفة لأنني منعتك عنها».

لم يستطع أن يتمالك ضحكاته، انفجر ضاحكا مما قالت وهو ينظر إليها قائلا: «ما أروع الحوار الدرامي الذي دار بخلدك الآن!».

احمر وجهها وارتبكت قائلة: «ماذا تعني؟».

اقترب منها هامسا: «أحبك، واشتقت إليك أكثر مما تظنين».

حاولت أن تخفي سعادتها فخفضت عينيها قائلة: «ولكنك لم تحدثني طوال اليومين».

وضع يده تحت ذقنها ورفع وجهها إليه قائلا: «ولكنك كنت معي دائمًا، واشتقت إليك فقط مع كل نفس كنت أتنفسه لا أكثر!».

قالت بدلال: «إذًا، أتعدني ألا تتركني مرة أخرى؟»

وجدها فرصة سانحة لكي يطلب منها أن تذهب معه دون أن تعترض، فقال لها: «سوف أسافر بعد خمسة أيام مرة أخرى لمدة أسبوع فهلا تأتين معي؟».

«نعم، سوف آتي معك».

تهللت أساريره فرحا بما قالت، فلقد كان أكثر ما يشغل باله كيفية إقناعها بالسفر معه، وها قد يسر الله ذلك دون مجهود منه.

غمز لها قائلا: «وسننزل معًا في نفس الغرفة».

أدركت ما يرمي إليه من إتمام زواجهما فتخصب وجهها بحمرة الخجل، وابتسمت قائلة: «كما تحب».

أخبرتك قبلا أني أحبك أنت.

****

نامت هدى في هذه الليلة ملء جفونها، فهي لم تذق طعم النوم خلال يومي سفر أحمد، أما أحمد فقد نوى الإحرام، وخرج إلى الميقات ثم ذهب إلى الحرم ليعتمر، أتم مناسك العمرة وحمد الله على نعمه وسأله أن يبارك لهما ويبارك عليهما ويجمع بينهما في خير.

وفي الصباح كان أول ما فعلته هدى أن تحدثت إلى عمها لتخبره بما اتفقت عليه مع أحمد، فقال لها: «إذًا نقيم حفل زواجكما قبل السفر».

«أخبرتك قبلا يا عماه أنني لا أريد حفلا».

«وأخبرتك كذلك أنني لا أؤيد هذا الرأي، على أية حال سوف آتي إليكم في الغد».

اتصلت بأحمد وأخبرته عن مكالمتها مع عمها وعن حضوره في الغد وطلبت منه ألا يوافقه على إقامة حفل قبل سفرهما، وعدها بذلك ثم قال مغيرًا مجرى الحديث: «ألم تنتبهي يا أستاذة أنه قد مرَّ وقت ليس بالقليل وأنت متوقفة عن العمل؟».

وكأنها انتبهت فجأة لذلك، قالت له: «يا إلهي! هل تصدق أنني لم أنتبه لذلك، على الرغم من أن العمل كان شغلي الشاغل، لا أدري كيف حدث ذلك!».

قال مداعبا: «يبدو أن هناك من استولى على عقلك تماما».

قالت بحب: «بل يمكنك القول إن هناك من سلبني عقلي وقلبي».

تظاهر بالغضب قائلا: «ومن الذي جرأ على فعل ذلك!».

ضحكت بدلال وقالت: «لن أخبرك».

****

حضر الشيخ صالح في اليوم التالي، قابل أحمد في البداية، واتفقا أن يخبرا هدى أن أحمد قد أقنعه بعدم إقامة الاحتفال قبل سفرهما، ثم أخبر أحمد أنه سيتحمل تكاليف كافة الترتيبات التي قام بها أحمد في الغردقة، ولكن أحمد أصر على الرفض.

اتصل الشيخ صالح بعد ذلك بهدى وأخبرها أن تستعد؛ لأنه سيمر عليها ويذهبا للتسوق، اتصلت هدى بأحمد واستأذنته في الخروج، ثم استعدت للذهاب مع عمها.

وبعد أن سلمت على عمها، سألها «هل أخبرته؟».

«لم يسمح لي بذلك يا عمي، يقول إنه لا يريد أن يعلم أي شيء يخص الماضي».

«ولكنه سيعلم ذلك يا ابنتي عاجلا أو آجلا».

«أعلم ذلك، وقد أخبرته أن هناك ما يجب عليه معرفته قبل الزواج، لكنه رفض وأخبرني أن أترك كل شيء لوقته».

«فليفعل الله ما فيه الخير، والآن سنذهب لشراء كل ما تحتاجينه، هل حددت ما تريدين؟».

«جزاك الله خيرًا يا عمي، لا أريد أن أرهقك، سوف أفعل ذلك بنفسي لا تقلق».

«اسمعيني يا هدى، أعرف أنك قد تربيت على عزة النفس والكرامة، ولكن يا ابنتي أنا لا أتفضل عليك بشيء، أنا فقط أرد لك جزء من الدين، كما أنك والحمد لله لست في حاجة للمال لتشعري أن ذلك مساعدة لك، أنت بمثابة ابنتي وأنا من يحتاج لفعل ذلك معك، فرجاء لا تحرميني من ذلك، منذ صغرك وأنا وزوجتي رحمها الله نعتبرك بمثابة ابنة لنا فكما تعلمين أن الله تعالى لم يرزقنا بالمؤنسات الغاليات، ورزقنا بالبنين فكنت أنت عوضا لنا عنهن، ولو كانت زوجتي أو أمي أو أمك معنا الآن لم استطعت أن تفعلي ما تفعليه معي الآن».

اغرورقت عيناها بالدموع وقالت: «لا حرمني الله منك يا عمي، كنتم ومازلتم نِعم الأهل لي، وقد عوضني الله بكم خيرًا عن كل ما فقدته في حياتي، وأنا مدينة لكم بكل ما أنا فيه».

ربت على كتفها ممازحا: «لا دموع بعد الآن أيتها العروس، هيا بنا».

اشترى لها عمها كل ما قد تحلم به أي عروس، لم يبخل عليها بشيء سواءً أخبرته به أو لم تخبره به وظن أنها قد تحتاجه، كما اتفق مع أحد معارض الأثاث أن يرسل لها غرفا جديدة، وعندما أخبرته أن شقة أحمد مجهزة، أخبرها أنها لن تتزوج على أثاث اختارته امرأة أخرى. فكرت أن أحمد قد يستاء من ذلك، ولكن عمها قرأ أفكارها فوجدته يتصل بأحمد ليطلب منه الحضور.

وعندما حضر أحمد أخبره برفض هدى، وأن عليه إقناعها بذلك، طلب منه أحمد أن يدفع ثمن الأثاث الجديد لأنه كان سيفعل ذلك أيضا، ولكن الشيخ صالح أخبره ألا يحرمه من تجهيز ابنته.

وفي المساء طلبت منه هدى أن يصعد معهما ليرتاح بعد كل الإرهاق الذي مر به اليوم، لكنه أخبرها أن وراءه الكثير من العمل في الصباح، لذا سيعود للبيت.

****

ثلاثة أيام تفصلهما عن السفر والزفاف، قضت هدى تلك الأيام بين شقتها وشقة أحمد أثناء وجوده في العمل، أخبرت أحمد أن عليهما نقل الأثاث الموجود من شقته قبل سفرهما حتى يمكن لسارة استلام الأثاث الجديد، أخبرها أنه سيتولى ذلك الأمر، وقد كان.

وفي صبيحة يوم السفر، أعطت هدى مفتاح شقتها لسارة وكذلك فعل أحمد، كانت السعادة مرتسمة على وجهيهما في أروع صورها، قبلتها سارة وهمست لها: «إلى اللقاء».

وصلت هدى مع أحمد إلى الغردقة مساءً، أوصلها أحمد إلى الغرفة وأخبرها أنه سيكون في الغرفة المجاورة لها حتى الغد، وسيخرج صباحًا لإنهاء بعض ارتباطات العمل ثم يلتقيا في المساء، وتركها سريعًا قبل أن ترد عليه.

شعرت بالامتنان تجاهه، فقد شعر بما تشعر به من تعب وإرهاق، دخلت إلى سريرها وسرعان ما غطت في نوم عميق.

وفي الغرفة المجاورة، دخل أحمد ليسلم على والديه ويبيت معهما تلك الليلة، وبعد قليل وصلت سارة وزوجها، أما الشيخ صالح وماجد فقد فضلا الوصول في اليوم التالي.

استيقظت هدى على طرقات خفيفة على الباب، فتحت عينيها لتتفاجأ بأنها نامت بملابسها، ظنت أنه أحمد، فقامت على الفور لتفتح الباب.

تفاجأت بسارة أمامها ومعها والدتها، تسمرت في مكانها لحظة ولكن ضحكات سارة جعلتها تفيق.

قالت سارة ضاحكة: «من الواضح أنك نمت بملابسك، هيا فأمامنا الكثير لنفعله».

احتضنتها والدة سارة وأحمد قائلة: «منذ أن حدثتني سارة عنك وأنا أعلم أن هذا اليوم سيأتي، مبارك يا زوجة ابني الجميلة».

ابتسمت هدى بحياء وقبلتها ودعتهما للدخول.

استأذنت منهما لتغير ملابسها، ولكن سارة أخبرتها أنها طلبت الإفطار ليتناولوه معًا، ثم ننزل إلى مركز التجميل في الفندق لتزيين العروس وأخت العريس.

نظرت هدى إليها بتساؤل، فقالت: «اليوم كله مفاجآت فلا تتعجلي واتركي نفسك لي»، ثم غمزت قائلة: «حتى المساء فقط»، تصاعدت حمرة الخجل لوجه هدى، فربتت حماتها على يديها مطمئنة لها.

جلسن معن وتناولن الإفطار ثم قالت والدة سارة لابنتها: «اذهبي لإرضاع طفلك قبل أن تخرجي مع هدى».

قالت سارة بمرح: «يبدو أنك تريدين التخلص مني يا أمي لتنفردي بهدى، على كلٍّ سأذهب»، وتركتهما ضاحكة.

نظرت هدى إلى حماتها بترقب، صحيح أن ملامحها توحي بالطيبة، ولكنها شعرت بالرهبة من هذا اللقاء، بالإضافة إلى أنها لم تكن قد استوعبت حضورهما بعد.

وكأن حماتها قد شعرت بما يدور في خلدها، فبدأت بالحديث معها

قائلة: «أشعر بكل ما تفكرين فيه يا ابنتي، بداية حضرت وزوجي أمس قبل وصولكما أنت وأحمد، ثم حضرت سارة وزوجها بعد وصولكما بقليل، كما أن عمك وابنه سيصلان اليوم لحضور احتفال صغير يضمنا فقط لزفافكما، أعلم أنك أخبرت أحمد أنك لا تريدين احتفالا، ولكنه أراد أن يقدم لك مفاجأة تبهجك، لكن ليس هذا الذي أريد أن أتحدث معك فيه، فقط أردت أن أوضح لك سبب وجودنا، أردت أن أحدثك عما مر به أحمد، تزوج أحمد سابقا زواجا تقليديا بناء على ترشيح بعض المعارف، فطوال عمره وهو يخشى الله ولم يسع إلى أي علاقة مع زميلة له أو ما شابه، لكن هذا الزواج لم يدم لأكثر من شهور معدودة، فقد ابني على أثره الثقة في كل النساء، لا أريد الخوض في التفاصيل، ولكني أريد أن أؤكد لكِ أنه حتى آخر لحظة لم يظلمها، وقد فوض أمره لله فيها، وقرر ألا يتزوج بعدها أبدًا، حتى رآك... شعرنا جميعًا بالتغيير الذي أصابه ولم نكن نعلم السبب، سارة هي التي لفتت نظرنا لذلك، وأكدت لنا أنها تشعر بحبه لك، وعندما توطدت علاقتها بك أخبرتنا أنها تشعر أن مشاعرك تميل إليه، وعندما حضرت ووالد أحمد وقت ولادة سارة، ورأينا الطريقة التي يتعامل بها معك، تحدَّث معه والده ونهاه عن ذلك، لكنه أكد كلام سارة أن أحمد يحبك لن أكذب عليك، كنت أتمنى أن يتزوج ابني بكرًا لحاجة في نفسي قد تعرفينها يومًا، ولكن بعد أن رأيتك شعرت أنك خلقت له، لقد ملكت مشاعر أحمد يا هدى وقلبه، وهذا ما لم نكن نتوقع حدوثه، لكن مع ذلك أريدك أن تعرفي شيئا يا ابنتي، لا تعتمدي على ذلك في تعاملك معه حتى لا تفقديه، أحمد من النوع الذي يمكنه فصل عقله عن قلبه تمامًا، ولا يسمح لقلبه أن يتحكم فيه البتة، وإذا

ما وصل لمفترق الطرق بين قلبه وعقله، فثقي تمامًا بأن عقله هو المنتصر، لذا فالتحدي الأكبر أمامك الآن أن تملكي عقله كما ملكت قلبه، إذا ما واجهتما أي موقف، حدِّثي عقله قبل قلبه، وإياك والكذب، فلن يغفره لك مطلقًا، وثقي أن صدق القلب ورجاحة العقل هم السبيل الوحيد لزوجك».

خيم الصمت عليهما بعد أن انتهت من كلامها، حتى قطعته هدى قائلة: «هل يمكنني أن أناديك ب «أمي»؟».

تهللت أسارير حماتها وقالت: «بل يسعدني ذلك لأقصى حد ويعني لي الكثير، كما يعني أنك تقبلت ما قلته لك بمحمله الصحيح».

جزاك الله خيرًا يا أمي على كل ما قلته لي، واسمحي لي أن أفتح لك قلبي وأخبرك بحكايتي.

حاولت أن أخبر أحمد بها قبل العقد ولكنه رفض وأخبرني أنه لا يريد أن يعرف شيئًا عن الماضي، وأنا في حاجة لأن أخبر أحدًا بها، ولن أجد من ائتمنه عليها سواك، كما أن فيه ما سيثلج صدرك ويسعدك.

ابتسمت وقالت: «كلِّي آذان مصغية».

****

قضت هدى وسارة اليوم كله في مركز التجميل، وبالطبع تفاجأت هدى بأن أحمد أرسل إليها عباءة بيضاء مرصعة بفصوص صغيرة ملونة لترتديها.

بدت هدى في أبهى صورها بعد الانتهاء من تصفيف شعرها ولكنها رفضت أن تضع مكياجا على وجهها ولا أن تظهر ولو خصلة واحدة من شعرها، وهو ما جعل سارة والعاملات في مركز التجميل يصبن بخيبة الأمل،

لكنها أصرت ألا تظهر زينتها لغير محارمها، واتفقت مع خبيرة التجميل أن تعود إليها قبل صعودها لزوجها، ارتدت حجابها كاملا واستعدت للخروج، لكن سارة أخبرتها أن تنتظر.

وبعد صلاة المغرب أتى عمها ومحمود زوج سارة إليهما واتصل محمود بسارة لتخرجا إليه.

تفاجأ عمها برؤيتها، فمال عليها وقبل جبهتها وقال: «ما شاء لا قوة إلا بالله، بارك الله لك يا ابنتي، اليوم أوصلك لزوجك الذي ارتضيه لك وآمن عليك معه، عسى الله أن يجمع بينكما في الخير».

سارت مع عمها متأبطة ذراعه وخلفهما سارة ومحمود حتى وصلا لمدخل القاعة، وهناك كان أحمد ينتظرهم مع والديه وماجد.

التقت عيناهما، لم تر سواه ولم ير سواها، وكأن العالم قد وجد لهما فقط، اقترب منهم وتقدم ليأخذها من بين يدي عمها الذي قال: «قد سلمتك اليوم أغلى ما أملك، ولولا ثقتي فيك ما فعلت، فعاهدني أن تحفظ الأمانة وتستوصي بها خيرا».

لم يزد أحمد على كلمة واحدة: «أعدك».

جلسوا جميعا حول مائدة ضمتهم، تبادلوا التهاني والضحكات النابعة من القلب، قال ماجد: «فلندع لهم جميعا معا... بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير».

رددوا جميعا الدعاء، وأسهبت والدة أحمد في الدعاء لهما.

لوهلة شعر أحمد وهو ينظر لماجد أثناء حديثه أنه ينظر لهدى بشوق، لكنه سرعان ما نفض عنه هذا الإحساس، ونظر لزوجته التي لم تفارق حمرة الخجل وجهها.

فوجئت هدى بأن أحمد يقدم لها الشبكة، أمسك بيدها ليزينها بخاتم الزواج المزدان باسمه ولثم أصابعها بعدها، ثم أحاط رسغها بسوار رقيق.

التقت أعينهما تنطق بالكثير، مزيج من الحب والامتنان واللهفة، ذاب كل منهما في عيني الآخر، لكن سرعان ما انتبها على صوت محمود مداعبا: «إحم إحم، نحن هنا».

انفجر الجميع ضاحكين، وحاول أحمد أن يداري ارتباكه قائلا: «حقا؟!»، ثم التفت للشيخ صالح وأعطاه إيصالا من البنك قائلا: «أودعت أمس المهر في حساب هدى».

نظر له الشيخ صالح متسائلا: «أي مهر يا بني؟ لم نتفق على شيء».

«وهل كنت سأتزوجها دون مهر، أليس هذا حقها الشرعي؟».

نظر له الشيخ صالح بامتنان قائلا: «كنت على يقين أنني قد أحسنت الاختيار، جزاك الله خيرا يا بني وبارك لك في رزقك وزوجك».

تناولوا جميعا العشاء، في جو يسوده الحب والمرح، ثم استأذن الشيخ صالح وماجد للحاق بموعد طائرة عودتهما، ودَّعا هدى مع وعد بلقاء عقب عودتهما.

نظرت سارة لهدى وغمزت لها قائلة: «هل نذهب؟».

أومأت هدى برأسها إيجابا.

سألها أحمد إلى أين؟

أجابته سارة ضاحكة: «لدينا موعد».

استعدت هدى للذهاب مع سارة، لكن أحمد أمسك يديها قائلا «إلى أين؟».

ابتسمت هدى وقالت: «ألم تخبرك سارة، لدينا موعد».

ضحكوا جميعا، وقالت والدته: «اتركهما يا أحمد، ستنهيان بعض الأمور معًا حتى أتحدث معك قليلا».

انطلقت هدى وسارة، واستأذنت والدة أحمد من والده ومحمود أن تتحدث مع أحمد على انفراد.

«اسمعني يا بني، أريدك أن تكون رفيقًا بزوجتك اليوم قدر ما تستطيع».

نظر لها أحمد بتساؤل قائلا: «ماذا تعنين يا أمي؟ هل هدى متعبة؟».

لا يا حبيبي لم أقصد ذلك، أنا فقط أتحدث معك، فلنقل إنني لم أقدم لك النصائح الكافية في الزيجة السابقة، وها أنا أفعل الآن!

نظر لها معاتبا: «شتان يا أمي بين هذي وتلك».

بالطبع يا بني بالطبع، وستتأكد من ذلك، والآن أريدك أن تذهب إلى غرفتكما لتتأكد من انتهاء الترتيبات التي طلبناها قبل صعودكما.

تأكدت من ذلك يا أمي لا تقلقي، لكن أخبريني بما تريدين دون مواربة.

ابتسمت بغموض وقالت: «اترك كل شيء لوقته، ولكن تذكر جيدًا: رفقا بها».

عادا معا إلى والده ومحمود، وبعد قليل اتصلت سارة بأحمد ليقابلهما عند الغرفة، قاموا جميعا متجهين إليهما، تفاجأ أحمد بخمار كبير مسدل على وجه هدى، ولكن سارة لم تعطه فرصة للتفكير وقالت له ضاحكة استلم زوجتك وامسك يديها لأن الخمار يحجب عنها الرؤية، وهنا انتهت مهمتي.

احتضنته وباركت له، وكذلك فعل زوجها ثم والده ووالدته، وهمست والدته في أذن هدى: «أوصيته بك خيرًا فلا تقلقي».

ودعوهما لأن كل منهم سيعود فجرًا من حيث أتى ويبقى الحبيبان معًا وحدهما بعيدًا عن الجميع.

****

دخلت هدى الغرفة، وجلست على الأريكة وما لبث أحمد أن لحق بها، جثا على ركبتيه أمامها وأمسك بخمارها يرفعه عن وجهها ورأسها.

كانت تلك المرة الأولى التي يراها فيه دون حجاب وهي بكامل زينتها، خفق قلبه لمرآها.

نظر إليها قائلا: « قمر توشحَ بالسَحابْ وأطل من خلف الهضابْ».

لم تكن هدى في حال يسمح لها بالنطق من شدة خجلها، خافضة عيناها ووجهها مكسوًا بحمرة الخجل والابتسامة تعلو شفتيها.

مس جبتها وقال: « اللّهمّ إنّي أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما جبلتَها عليهِ وأعوذُ بِكَ من شرّها ومن شرّ ما جبلتَها عليهِ»، ثم نظر إليها قائلا: «نصلي؟».

أومأت برأسها أن نعم.

أمَّها في صلاة ركعتين خفيفتين، دعا الله فيهما أن يبارك لهما ويجمع بينهما في الخير.

قام من صلاته ومد يده إليها لتنهض، قائلا: «والآن، هلا أغمضت عينيك؟».

أغمضت عينيها فحملها ودخل بها إلى الجزء الآخر من الغرفة، وهي مستسلمة له تماما.

شعرت به ينزلها ففتحت عينيها لتتفاجأ بالغرفة وقد زينت بالورود والشموع في كل مكان. شعرت أن نبضات قلبها قد أصبحت مسموعة من شدة انفعالها.

«هل تسمحين لي بتلك الرقصة؟».

لم يمهلها لترد، بل أخذها بين ذراعيه وظل يرقص معها على أنغام قلبيهما.

إن قدر يوما للسعادة أن تتجسد، فلابد أنها ستتجسد فيهما.

كانا مثل طائرين يحلقان في عنان السماء، شعرا أنهما قد انفصلا عن كل ما حولهما، أو أن الدنيا لهما دون سواهما.

انتشلهما من سكرتهما صوت هاتفه، نظر إليه مغتاظا ثم أغلقه.

اقترب منها وغمز لها قائلا: «ربما أعطانا الهاتف فرصة لتبديل ملابسنا».

دخل إلى الحمام ليبدل ملابسه ريثما تنتهي كذلك من تبديل ملابسها».

كانت قد انتهت عندما خرج وأدارها إليه قائلا: «أخيرا!».

ارتعشت من لمسته، حاولت التملص من بين يديه قائلة: «أشعر بالعطش».

همس لها: «وأنا كذلك».

حاولت أن تفلت من يده قائلة: «سوف أحضر الماء».

أمسك بها قبل هروبها وضمها إليه قائلا: «ما يرويني سواك!».

وشرب حتى ارتوى...

****

استيقظت قبله أو بالأحرى تركت السرير أولا، فلم تذق النوم في تلك الليلة، تفكر فيما ستخبره به عندما يسألها.

قامت فاغتسلت وصلت، ثم فتحت النافذة تنتظر أن يستيقظ أو أن تشاهد الشروق، أيهما أقرب، داعبت نسمات الهواء خصلات شعرها،

فانتبهت إلى أنها يجب أن توقظه ليصلي الفجر، فاستدارت لتفعل، لكنها وجدت نفسها بين ذراعيه، صرخت هلعا من فرط المفاجأة، ظل يضحك عليها ويربت على كتفها حتى هدأت.

سألها ضاحكا: «لم كنت في عجلة من أمرك؟»

«كنت أريد أن أوقظك لصلاة الفجر».

مسح على رأسها بحنان قائلا: «وكيف تخرجين دون حجابك؟».

محتجة قالت «البحر أمامنا، والوقت مازال باكرا».

«ولكنني أغار عليك من ضوء النهار، وموج البحر أن يرى طرفك».

«ليتك تخبرني من أين تأتي بكل تلك الكلمات!».

«من بحر عينيك».

«فيا أيها الشاعر، هلا اغتسلت وقمت للصلاة قبل شروق الشمس؟»

«كما تأمرين يا أميرتي».

اغتسل وصلى، ثم توجه للجلوس بجانبها قائلا: «تظهر عليك بوضوح علامات السهر».

نظرت له قائلة: «سوف أوفر عليك مشقة البحث عن بداية يا أحمد، حاولت قبلا أن أخبرك عما مضى من حياتي ولكنك ...».

قاطعها قائلا: «ما زلت عند عهدي لك، لا أريد أن أعرف عن الماضي، ولكني مندهشا لماذا ومتى أجريت تلك العملية؟!».

نظرت له بدهشة ممزوجة بالحيرة: «أي عملية؟»، ثم انتبهت لما يعني فقالت: « لا يا أحمد، الأمر ليس كذلك بالمرة، كل ما في الأمر أنني كنت زوجة... مع إيقاف التنفيذ، لم يكن زواجًا يا أحمد، لم يكن كذلك!».

اتسعت عيناه من فرط الدهشة وقال: «هدى، كنت زوجة لما يقرب من سبع سنوات مع إيقاف التنفيذ؟».

أغمضت عينيها وكأنها تشعر بالألم وقالت: «حاولت أن أخبرك مرارًا وتكرارًا لكنك رفضت الاستماع إلي، أخبرتك أنك ستعرف عاجلا أم آجلا، والآن اسمعني:

«أبي وأمي كانا طبيبين، تزوجا وأتيا للعمل هنا في المملكة في مشفى زوج خالة أمي، والتي كانت متزوجة من سعودي، ولدت هنا في المملكة ثم مات أبي وعمري لم يتعد العام، مرت أمي بفترة عصيبة بعد وفاته، ولكن وجود خالتها خفف عنها الكثير، كان جميع أبناء خالتها من الذكور؛ حيث لم يرزقها الله بالإناث وهو ما جعلها شديدة التعلق بأمي منذ صغرها. فكرت أمي في العودة لمصر بعد انتهاء عقد عملها، لكن خالتها – جدتي- أقنعتها بتجديد العقد، والبقاء معها خاصةً وأن والديها قد توفيا.

وبعد مرور عام على وفاة أبي، طلبت منها أن تتزوج أحد أبنائها لتضمن استمرارها معها في المملكة ولاسيما أنها قد تعلقت بي أيضا، وتزوجت أمي من أبي «عبد الله» ابن خالتها، كانت زوجة ثانية؛ حيث لم تكن جدتي على وفاق مع زوجته، واشترطت أمي أن تمكث مع جدتي في نفس البيت. عاملني أبي عبد الله تمامًا كابنته، وحتى بعد أن وهبه الله أخي وليد من أمي لم يفرق بيننا يومًا، كنت أناديه أبي، ففي الحقيقة أنني ومنذ أن وعيت لم أرى سواه، وكان نعم الأب، يمكنك القول إنني كنت أعامل كالأميرات، فلقد كان جميع أحفاد جدتي من الذكور، نشأت معهم كأخوتي، وكان أقربهم لي بعد أخي، ماجد ابن عمي صالح...

قاطعها قائلا: «إذًا جدتك هي والدة الشيخ صالح؟».

نعم، ولقد كانت لدي مكانة خاصة عند عمي صالح وزوجته رحمها الله التي كانت تدللني ربما أكثر من أمي، فأمي كطبيبة نسائية كانت تقضي معظم وقتها في المشفى، وكنت أنا وأخي وليد مع جدتي طوال الوقت، وكذلك مع زوجة عمي صالح، ومرت الأيام وأنهيت دراستي الثانوية وكان لابد لي من الذهاب لمصر لدخول الجامعة، اقترحت أمي أن أسكن في مدينة الطالبات ولك أن تتخيل بالطبع الصدمة الحضارية التي تعرضت لها. فرق كبير جدا بين المجتمعين، لذا تجدني لم أستطع تكوين صداقات البتة، وعدت بعد أسبوع واحد إلى المملكة باكية، فرفق أبي بحالي وأقنع أمي أن أسكن في شقة وحدي، وعدت إلى مصر مع جدتي التي أصرت على مرافقتي حتى أعتاد الأمر، ومرت سنوات الجامعة بحلوها ومرها وعدت إلى موطني الحقيقي الذي لم أعرف سواه.

وبعد عودتي، كنا ذاهبين لأداء العمرة جميعا، أبي وأمي وأخي وأنا وجدتي وزوجة عمي صالح، لكن جدتي مرضت فقررت المكوث معها، على أن نذهب سويا بعدما تتحسن.

ترقرق الدمع في عينيها وهي تقول: «وبعد انصرافهما فوجئنا، بعمي صالح يخبرنا بانقلاب السيارة التي تقلهم إلى مكة، ووفاة زوجته وأبي في الحال ونقل أمي وأخي إلى المشفى، هرعنا إلى المشفى، وما هي إلا أيام قليلة ولحق بهما أخي ثم أمي».

صمتت قليلا لتتحكم في انفعالاتها بينما نظر إليها أحمد بإشفاق، ثم قالت: «انهارت جدتي في المشفى، أصيبت بانهيار عصبي وتم حجزها فيها،

بينما فقدت أنا اتزاني وشعرت بالضياع، هل تعرف معنى أن تفقد كل من تملك في لحظة واحدة؟! جلست على الأرض أمام الغرفة التي بها جدتي أبكيهم جميعا وأدعو الله أن يطيل في عمرها لأجلي.

أخذني عمي صالح من أمام الغرفة ليصحبني للمكوث لديهم، ولكني رفضت وأخبرته أنني سأعود لبيتنا فلم يبق لي سواه، ورجوته ألا يحرمني من الشيء الوحيد المتبقي لدي.

كنت أتردد على جدتي يوميا في المشفى، ولم يكن هناك أي تحسن، وبعد عدة أيام أتتني زوجة أبي الأولى للاطمئنان عليَّ، كانت زيارة غريبة فلم تكن تزورنا أو تود أي منا رغم كل هذه الأعوام، لكن دهشتي لم تطل، إذ أخبرتني أنني معرضة للترحيل إلى مصر في أي لحظة، فلم يعد لوجودي أي سند قانوني أو شرعي ولاسيما وعمي صالح مشغول في حزنه على زوجته وخوفه على والدته وإنهاء إجراءات الميراث.

أضافت لهمومي هما جديدًا، شُلَّ تفكيري ولم أدرِ ماذا أفعل، لكنها أخبرتني أن لديها الحل.

طلبت مني أن أتزوج من ابنها خالد، نظرت لها بشك، لم تكن علاقتنا جيدة يوما، فما سر هذا الطلب؟! ولكن دهشتي لم تستمر كثيرا؛ حيث حدثتني أن في رقبتي دين لأبي عبد الله وحان وقت سداده وحل مشكلتي في نفس الوقت.

خالد وقع في كبيرة الزنا مع خادمة فلبينية لديهم وهي حبلى الآن في شهر واحد، ولأنها خادمة من ناحية وبلا ديانة من ناحية أخرى، فلا يمكنه الزواج منها والاعتراف بالطفل، كما أنهم يخشون من أن تشتكيهم فيطبق

عليه الحد، لذا فهي تريد مني أن أتزوجه وفورا - زواجا ورقيًّا- ولكن أظهر معه أمام الجميع زوجة له، ثم تعلن حملي، مع استمرار وجود الخادمة حتى تضع طفلها فينسب لي ولخالد.

أسقط في يدي، لم أدر ماذا أفعل! خالد شخص سيء الخلق ولا أرضاه زوجا، وكيف أرتضي أن ينسب إلي طفل ليس طفلي، لكن على الجانب الآخر هناك سيرة أبي وأخي رحمهما الله وكذلك سيرة عمي صالح وأبنائه، التي ستدنس بسببه إن عرف هذا الأمر، كما أنني معرضة حقا للترحيل في أي لحظة، وكانت الحياة في مصر بالنسبة لي كابوسًا لا أحتمله بعد تجربة الجامعة، كما أنه ليس لي أحد هناك.

سألتها: «وماذا إن رفضت، كيف ستتصرفين مع الفتاة؟».

أجابتني بحزم سأجهضها رغما عنها، ثم نظرت لي نظرة ذات مغزى وقالت: «وستذهب كل منكما إلى بلدتها في أسرع وقت».

وقتها شعرت أنه ليس لي حرية الاختيار، فكرت في الاتصال بعمي أو بماجد، ولكني تراجعت فيكفيهما ما هما فيه، كما أنني متأكدة أن عمي سيرفض، وسيصر على أن ينال خالد عقوبته، وسيخبرني ألا أقلق من الترحيل، لكن ماذا عن سمعة أبي وأخي رحمهما الله؟

نظرت إليها وأخبرتها بموافقتي بشروط، أولا: أن يكون الزواج ورقيًّا، وألا تصاب الفتاة بأي أذى، وبعد ولادتها تربي طفلها ولا نحرمها منه، كما أخبرتها أنني لن أترك جدتي، فإما أن تعيش معنا وإما أن نعيش معها، وأن تحسن معاملتها ولا تسيء لها أبدا.

نظرت لي بغيظ ووافقت.

أخبرتهـا أنني لا أخشـى شـيئا وأنهـا إذا أخلـت بوعدها، فسـوف أبلغ الجهات المختصة ولنتحمل جميعًا العقوبة.

صمتت قليلا ونظرت لأحمد، توقعت أن ترى نظرات احتقار في عينيه، لكنها على العكس رأت نظرات تعاطف، فأكملت: « وبعد ذلك أخبرتني....».

أخبرتني ألا أخبر عمي صالح إلا بعد أن يتم الأمر، لم تكن تحتاج لذلك في الواقع وقد كان، مرت علي في المساء وأخذتني معها، عقدنا القران وكان القاضي هو الولي، كنت وحيدة لأبعد الحدود، وذهبنا إلى بيتها لأتفاجأ بعمي صالح وماجد هناك، وما إن رآني عمي معهما حتى استرجع وقال «إذًا ما سمعته كان صحيحًا، لكني حضرت متأخرا مع الأسف».

أما ماجد فقد انهال بالضرب على خالد، ولولا تدخل عمي ومنعه له، فالله وحده يعلم ما كانت الأمور ستؤول إليه.

سألني عمي لماذا فعلت ذلك، ولماذا لم استشره قبل أن أفعل ذلك؟

ظللت أبكي بكاءً هستيريًّا، ولم أجد سوى عمي يربت على كتفي ليهدئني، أما ماجد فقد ظل يصرخ في خالد أن يطلقني، وكادت الأمور أن تتطور وخاصةً بعد أن تطاول خالد على ماجد وأخبره أنه يفعل ذلك لأنه كان يريدني لنفسه.

في تلـك اللحظـة تذكر أحمد نظرة الشـوق التي ظن أنـه رآها في عيني ماجد، وتأكد أنها كانت حقيقية وليست وهما توهمه.

تركني عمي بعد أن همس في أذني أنه سيظل داعمًا لي مهما حدث وأنني لا يجب أن أتردد في الاتصال به متى احتجته.

أخذتني زوجة أبي إلى غرفتي وحاولت أن تكون لطيفة معي، أخبرتني

أنها ستخبر الجميع أننا متفقين على هذه الزيجة من قبل الحادث، وبعد الحادث أتممناها سريعا نظرا للظروف، لم أعترض على كلامها، دخل خالد وراءها، ولما رأى خوفي أطلق ضحكة مقيتة، لكنها نهرته وأمرته بالخروج.

في البداية مكثت في غرفتي يومين، لكن بعد ذلك بدأت في الخروج للتعامل معهم، كنت أخرج بكامل حجابي وتعرفت على والدة الطفل المسكين، واسمها «ميا»، كنت متحفظة في التعامل معها في البداية وكذلك هي، ولكني اكتشفت بعد ذلك أنها مسكينة وقد غرر بها خالد، فتوطدت علاقتنا إلى حد ما.

كنت أذهب لجدتي يوميا وأجلس بجانبها وهي نائمة أحكي لها أمورًا عادية وأحاول أن أشجعها لتفيق، لكن لم يكن هناك أي تقدم.

وفي أحد الأيام وأنا نائمة فوجئت بخالد يدخل غرفتي ويحاول الاقتراب مني، صرخت فيه وأتت والدته مهرولة على صوت صراخي، صفعته على وجهه، ولكنه رد عليها أنني زوجته وأن له حقًا في، جذبته من يده رغما عنه خارج غرفتي وأغلقت الباب عليَّ بعد أن قالت: «اطمئني».

هرعت إلى الباب لأوصده بالمفتاح فسمعتها تقول له: «أيها الأحمق، أوكلَّما حاولت أن أنقذك من ورطة توقع نفسك بأخرى، أتريد أن تتم الزواج الآن؟ وماذا إن حملت؟ ماذا سنفعل في تلك الحالة؟ اصبر حتى ننتهي من أمر الطفل ثم افعل معها ما شئت».

وأسقط في يدي، لم أدر ما الذي يجب عليَّ فعله، ظللت مستيقظة حتى الصباح، ثم ذهبت لجدتي، جلست بجانبها كما أفعل، ولكنني في هذه المرة انهرت من البكاء وحكيت لها كل شيء، وظللت أهزها واستحلفها أن تفيق ولا تتركني، أخبرتها أنني في أمس الحاجة إليها فكنت أشعر أنها تسمعني، ولكن دون جدوى.

لكني لم أنتبه وقتها لوجود عمي صالح وسماعه لكلِّ ما قلت. فوجئت به يربت على كتفي ويقول: «أحملت كل ذلك على عاتقك ولم تشركينني فيه؟ ألست ابنتي وأنا مسؤول عنك؟ ألم يكفيك ما أنت فيه لتحملي معه تلك الهموم؟».

«كنت أعلم يا عمي ما أنت فيه ولم أرد أن أزيد من همومك».

ربت على كتفي مهدئا وأخبرني أن كل شيء سيكون بخير.

عدت إلى البيت، وقد شعرت أن حملا ثقيلا قد انزاح عن كتفي، والحقيقة أن خالد قد التزم بما قالته له أمه ولم يحاول الاقتراب مني ثانية، وبعد يومين اتصل بي عمي ليبشرني أن جدتي قد استعادت وعيها وأنه سيمر عليَّ ليصحبني إليها، سعادتي كانت بالغة في ذاك اليوم على عكس زوجة أبي التي كانت قد رتبت أمورها على موت جدتي، وقبل أن أخرج سألتها هل أحضر جدتي معي أم نذهب جميعا للإقامة معها؟

نظرت لي بغيظ وقالت: بل احضريها، وأردفت: «وإن كنت أظن أن عمك سيرفض».

نظرت إليها بتحد وقلت: «يمكنني معالجة هذا الأمر، لا تقلقي».

ذهبت مع عمي إلى المشفى، ورأيت ماجد هناك، فلم أكن قد رأيته منذ يوم زواجي.

رأيت في عينيه نظرة اعتذار فعلمت أن عمي قد أخبره، فماجد هو الذراع الأيمن لعمي وعمي يعلمه بكل شيء، تجاهلت ذلك واحتضنت جدتي التي ربتت على كتفي، وأخبرتني أنها عادت من أجلي، وأنها سمعت كل ما قلته لها ولكنها كانت أضعف من أن تفتح عينيها وقتها. عودة جدتي كانت بمثابة

عودة الروح إليَّ، صحيح أنها أصيبت بشلل في قدميها ولكن وجودها في حد ذاته أشعرني بالأمان، جدتي كانت امرأة قوية الشكيمة وكلمتها تسري على الجميع، وربما لذاك السبب لم تكن زوجة أبي تحبها.

عادت معي إلى المنزل ورحب بها خالد، فلقد كان يحبها كثيرًا رغم كل شيء، وكذلك هي كانت تحبه وترى أنه ضحية لسوء التربية. بمجرد أن رأته قالت: «ها قد سنحت لي الفرصة لأعيد تربيتك يا ولد».

مكثت وجدتي في نفس الغرفة، ورفضت جدتي أن تتحدث مع «ميا»، ولا حتى أن تسمح لها بالاقتراب منها.

ومرت الأيام، وفي الشهر الثامن للحمل أصيبت «ميا» بتسمم حمل وفقدت جنينها، لكن ويا للعجب، شعرت أنها لم تحزن على ذلك، بل وقررت ترك العمل لديهم، وأخبرت خالد ووالدته أنها لا تريد أن تتذكر فترة عملها لديهم، وأنها ستعود لبلادها.

جدتي شجعتها على ذلك وأعطتها مبلغا ماليا محترما وأخبرتها أن تعود لبلادها وتعمل عملا حرًا، وتبدأ من جديد.

تحدَّثت مع جدتي أن سبب الزواج الأساسي قد انتهى، وأنني أخشى أن يحاول خالد أن يتم زواجنا، أخبرتني أن السبب الخاص بهم قد يكون انتهى أما السبب الخاص بي فمازال معلقا، فإقامتي في المملكة حتى الآن مرتبطة بزواجي من خالد، ثم سألتني: «أرى أنه يرغب فيك، فهل ترغبيه زوجا أم لا، أجبتها لا قولا واحدًا، فقالت «إذًا اتركي لي هذا الأمر».

ثم جمعت العائلة جميعها، وأعلنت أنها ستسافر إلى أمريكا لتخضع لبرنامج علاجي، وستأخذني وخالد معها لنبدأ حياتنا معا هناك.

نسـيت أن أخـبرك أن جدتـي كانت تحمـل الجنسـية الأمريكية بجانب جنسـيتها المصرية، نظرت إلى جدتي غير مصـدقة لما تقول، وكذلك فعلنا جميعا، اعترض ماجد وصـرخت زوجة أبي محتجـة، لكن جدتي قالت هما ليسـا طفلين، فإذا وافقا فـلا كلمة لأحد بعد ذلـك، وكذلك الحال في حالة رفضهما، وبالنسبة لهدى فأنا أعلن لكم موافقتها، فماذا عنك يا خالد؟

تعجبت عندما نظر خالد إلى ماجد متحديًا وأعلن موافقته.

أشاح ماجد بوجهه بعيدًا، أما عمي صالح فقال: «على بركة الله، سوف أبدأ في إنهاء إجراءات السفر».

وبعد انتهاء الاجتماع، طلبت جدتي من عمي صالح أن نذهب معه أنا وهي للخارج قليلا، وبعد خروجنا جلسنا قليلا في السيارة، لأتفاجأ بسماعنا لحوار يدور بين خالد ووالدته التي نهرته لموافقته على السفر ولكنها أخبرها أنه سيسافر فقط ليحصل عليَّ ثم يعود، وأنه لن يتركني إلا بعد أن يأخذ مني ما يريد.

نظر عمي وجدتي لبعضهما، وقد بدا أنهما توقعا ذلك، لم أكن قادرة على استيعاب الأمر، وكيف أمكننا أن نسمع ذاك الحوار؛ أخبرني عمي أنه ترك هاتفه هناك مفتوحًا على محادثة من هاتف آخر في السيارة، قالت جدتي: «الآن يمكنني المضي قدما فيما انوي دون تأنيب ضمير».

وبعد أقل من شهر سافرنا، وكل منا يحلم بحلم مختلف عن الآخر، كان لجدتي بيت هناك أقمنا فيه، وما هي إلا أيام قليلة حتى تمكنت جدتي من جعل خالد يعود إلى المملكة بخفي حنين بعد أن هددته بإبلاغ السلطات عنه لأنه يسيء معاملتنا، بالطبع كان ذلك بعد جذب وشد وبالتنسيق مع عمي

صالح الذي انتظر عودته في المطار وأجبره على كتابة بعض الأوراق التي تدينه، حتى يضمن ألا يستعمل حقه كزوج لإعادتي، وأخبره أنه بمجرد عودتي، طال الزمن أم قصر فسوف يطلقني رسميًّا.

لم يتركنا عمي صالح ولا ماجد وحدنا، كان أحدهما يأتي لنا مرة كل شهر ليمكث معنا أسبوعا ثم يعود، وخضعت جدتي حقا لبرنامج علاجي حسَّن كثيرًا من حالتها.

وفي أحد المرات سألتني جدتي عن موافقتي على الزواج من ماجد، وأخبرتني أنها لن تطمئن عليَّ سوى معه، أخبرتها أن ماجد أخي وأنني أحمل له كل مشاعر الود الأخوية ولا يمكنني التعامل معه من منطلق آخر، لم تضغط عليَّ جدتي، فلقد كانت تعرف ذلك، ولكن يبدو أن ماجد و/ أو عمي قد طلبا منها أن تسألني حتى لا يكون هناك حرج إذا سألني أحدهما، والحقيقة أن قراري هذا لم يؤثر على علاقتي بهما، بل على العكس ظلا سندًا لي حتى وقتنا هذا.

وخلال عام تزوج ماجد، ثم تزوج عمي صالح، ولكنهما داوما على الحضور لنا مع زوجتيهما، صحيح أن زوجة ماجد لم تكن ترتاح لوجودي، لكنها لم تسء لي يوما.

وقضيت مع جدتي أكثر من خمس سنوات هناك، حتى حصلت على الجنسية الأمريكية، وهو الشيء الذي كانت جدتي تسعى إليه منذ البداية.

وفي يوم أخبرتني جدتي أنها تتوق لمكة، يبدو أنها وقتها شعرت بدنو الأجل، وكان وقت الحج قد اقترب، فاتفقنا على الذهاب للحج، وبالفعل أبلغنا عمي صالح وعدنا، ولكن جدتي أخبرته أننا سنمكث في شقة العزيزية

التي أقيم فيها الآن، وأوصته أن هذه الشقة لي من بعدها، وبالطبع لم ينس عمي أن يجبر خالد على تطليقي رسميًّا، بعد أن اطمئن لدخولي المملكة دون مشاكل، وكان قد رتب أوراق إقامتي بصفتي مواطنة أمريكية.

وقدر الله لنا أداء فريضة الحج مع عمي صالح وزوجته، ثم ذهبنا للمدينة، لكن أثناء عودتنا مرضت جدتي مرضا شديدًا، وأصر عمي أن نعود معه إلى بيته، وما هي إلا أيام قليلة حتى فاضت روحها إلى بارئها.

ومكثت في بيت عمي أيام العزاء وبعد ذلك بأسبوع تقريبا، لكن الوضع نفسه لم يكن مريحا لي ولزوجة عمي التي لا تعرفني وكذلك لزوجة ماجد التي كنت أرى نظرات الشك في عينيها كلما تقابلنا، لذا ذهبت لعمي في مكتبه وطلبت منه أن أعود للعيش في شقة العزيزية والعمل في المكتب. في البداية لم يوافق، وعندما حدَّثته عن حرمانية وجودي معهم من الأساس، أخبرني أنه يمكنني العيش في شقة أمي في جدة، كما أنني لست في حاجة مادية للعمل، لكنني أخبرته أنني أريد أن أكون بقرب الحرم كي أتمكن من الذهاب يوميًّا، كما أنني أنفذ وصية جدتي، وأن رغبتي في العمل نابعة من احتياجي لشغل وقتي فيما يفيد، وبعد جهد كبير وافق على ذلك، واتفقنا ألا يعلم أحد في المكتب عن صلة قرابتنا، وقد كان.

خيم الصمت على هدى وأحمد تماما بعد أن انتهت هدى من روايتها، أحست هدى بأن حملا قد انزاح عن أكتافها، وصمتت لترى وقع كلامها على أحمد.

وأخيرا نطق أحمد: «لم أكن أتخيل أنك قد مررت بكل ذلك يا هدى، سامحيني».

أسامحك؟! على ما؟

على كل لحظة أسأت فيها الظن بك، لكن أقسم لك أن ذلك كان بدافع الغيرة التي كانت تنهشني، ولكن بداخلي لم أكن لأصدق عنك شيئًا.

أتعلمين يا هدى؛ عندما أحببتك وتمنيت الزواج منك، لم يكن يعنيني كونك مطلقة أو بكرًا، ولكن أصدقك القول الأمس كان شعورًا مختلفا، شعرت حرفيا بعوض الله. ثم أطرق مفكرًا وقال: «أخبريني يا هدى، هل أخبرت أمي بذلك؟».

نعم، أخبرتها.

ضحك قائلا: «لهذا ظلت تخبرني أن أترفق بك ولم أكن أفهم ما تعني»، ثم نظر إليها وغمز قائلا: «ألا تشعرين بالعطش؟».

وابتسمت وابتسم.

****

(٨)

قضى أحمد وهدى أجمل أيام حياتهما معا، شعر كل منهما أنه كان يحيا نصف حياة حتى التقى الآخر.

أصبحت هدى أكثر إشراقا وأصبح أحمد أكثر هدوء ومرونة في التعامل مع الآخرين، كل منهما كان سكنا للآخر. يوما ما كانا يتحدثان سويا فقال لها أحمد: «أتدرين يا هدى، قبل زواجنا كنت عندما أقرأ الآية القرآنية ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[١١]، كان ما يتبادر إلى ذهني عن معنى: «لتسكنوا إليها» هو العلاقة الزوجية، وأصدقك القول لم أكن أشعر بالراحة تجاه هذا المعنى، أما وقد تزوجنا، فلم أجد وصفا أدق لما أشعر به معك سوى أنني أسكن إليك، وجدتني أسكن إليك بروحي وعقلي وقلبي. شعرت بعمق التعبير القرآني، وجدته بعيدا تماما عما ظننته قبلا، وجدتك مُسكّني وسَكَني وسَكِينتي وساكنتي وسكوني وسكوتي».

نظرت إليه وقد تأثرت بكلماته، قالت: «عدني ألا تتركني يا أحمد، لم أعد أستطيع أن أتخيل حياتي دونك، أنت دعوة دعوتها فأجابني الله بأفضل منها؛ أحبك يا أحمد.

عرفت الهوى مذ عرفت هواك ... وأغلقت قلبي على من عداك
أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاك».[١٢]

١١- سورة الروم الآية ٢١

١٢- رابعة العدوية

«أتركك؟ وهل يمكن لعاقل أن يترك نفسه؟ كيف أتركك وأنا لم أجد نفسي إلا بعد أن وجدتك؟».

****

عام كامل مرَّ عليهما معا، ذاقا فيه من حلاوة الحب ما أغناهما عن الدنيا وما فيها.

مات الشيخ صالح خلال هذا العام، مما جعل المسافات بين هدى وأحمد تضيق أكثر وأكثر.

الشيخ صالح كان سندها الأخير بعد جدتها لكنه الآن مات وتركها في رعاية أحمد؛ الشخص الوحيد الذي ائتمنه عليها.

صحيح أنه قد أوصى ماجد عليها قبل موته، ولكنه كان يعلم أن أمانها الوحيد مع أحمد، كما أوصى ماجد أن يحافظ على علاقته بأحمد؛ لأن هذه هي الطريقة الوحيدة للاطمئنان على هدى إذا احتاجت أي شيء.

فترة وفاة الشيخ صالح كانت قاسية جدًا على هدى، لكن وجود أحمد بجانبها هون عليها الأمر كثيرًا.

يوما ما كانت تجلس مع سارة تلاعب طفلها الصغير، فقالت لها سارة: «هدى ألم يحن الوقت بعد؟».

نظرت إليها متعجبة وقالت: «أي وقت تقصدين يا سارة؟».

«أن تنجبا طفلا يملأ عليكما حياتكما».

صمتت هدى قليلا ثم قالت: «لقد تحدثت مع أحمد كي نذهب للطبيبة يا سارة، لكنه رفض».

«أرجو ألا تستائي من كلامي يا هدى، ولكن زواجك قبل أحمد استمر

لعدة سنوات دون إنجاب، لذا أرى أنه يجب علينا الذهاب للطبيبة لنتدارك الأمر لو كان هناك سببا لذلك، اسمعيني سوف أطلب من أحمد أن تأتي معي للطبيبة؛ لأنني أشعر ببعض التعب، وبعد أن ننتهي من الفحوصات نخبره».

«لا يا سارة لن أكذب على أحمد، سوف أحاول معه مرة أخرى».

استغرق الأمر بضعة أيام حتى اقتنع أحمد بذهاب هدى للطبيبة مع أخته، فقد كان يرى أن لا شيء يدعو للعجلة والقلق، ثم وافق أخيرًا بعد إلحاح من هدى.

وبعد إجراء الفحوصات المطلوبة، لم تجد الطبيبة سببا لتأخر الحمل لدى هدى، وأخبرتهما عن ضرورة خضوع الزوج للفحوصات.

قالت سارة لهدى أنها سوف تحدث أحمد عن ذلك، ولكن هدى رفضت وأخبرتها ألا تفعل.

«ولم ذلك يا هدى؟».

«طالما طمأنتنا الطبيبة، فلا داع للقلق، اتركي الأمور تسير كما قدر لها الله».

ولكن هيهات أن تهدأ سارة، فلقد استبد بها القلق، وأصرت على أن تتحدث لأحمد ولكن زوجها أخبرها ألا تفعل كي لا تحرج أخيها، وأخبرها أنه سيفعل، فهما صديقان وهو يعرف كيف يقنعه بذلك.

****

استغل محمود سفره مع أحمد لمتابعة بعض الإجراءات التي تخص العمل، وفي أثناء جلوسهما معا تحدث معه بخصوص ذهابه لإجراء بعض الفحوصات التي تخص الإنجاب.

أطرق أحمد برأسه قائلا: «لقد فعلت يا محمود، وبعد عودتنا بإذن الله أحصل على النتائج».

ربت محمود على كتف صديقه، وقال: «سوف نطمئن بإذن الله، لا تقلق».

نظر له أحمد قائلا: «لم يكن الأمر يعنيني يا محمود، ولم أكن أريد لهدى أن تذهب للطبيبة، ولكن إصرارها على الذهاب، جعلني أشعر أن الموضوع يؤثر عليها كثيرًا، فأردتها أن تطمئن، ولأصدقك القول لم تكن تعنيني نتائج التحاليل والفحوصات في شيء، فلن يفرقني شيء عنها ما حييت، وبعد أن علمنا أنه لا يوجد ما يمنع الحمل من جهتها، خشيت أن يكون المانع لدي، وأنا أرى فيها شوقا للأطفال، فذهبت للمشفى وأجريت الفحوصات اللازمة دون أن أخبر أي شخص، لكن ما يشغل بالي كثيرا يا محمود، هو الشيء الذي يجب عليَّ فعله إذا أثبتت الفحوصات أن لدي مشكلة».

نظر له محمود باستغراب قائلا: «لم أفهم ما تعنيه!».

«أعني أنه إذا فرضنا أنه لا يمكنني الإنجاب، فهل يرضي الله أن أظلمها معي؟».

«تظلمها؟ لست أدري هل تعي ما تقول أم أنك فقدت القدرة على التمييز، هل أنا من سيخبرك عن مكانتك لدى زوجتك؟!».

«أنا أعرف تمامًا مشاعرها تجاهي، ومتأكد أنها لن تفكر مجرد التفكير في التخلي عني، ولكن في نفس الوقت يا محمود أنا أعلم شوقها للأطفال، وسيكون من الأنانية أن أنتظر منها تلك التضحية».

«دعنا لا نستبق الأحداث يا أحمد، ودع الأمور تسير كما قدر الله لها، لكن عدني ألا تقدم على أي خطوة دون أن تخبرني، بل عدني أن أكون معك

عند ذهابك لإحضار النتائج».

نظر إليه أحمد بصمت، ولكن محمود أقسم عليه أن يعده بذلك، ففعل.

****

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ[١٣]

****

وبعد عدة أيام ذهب أحمد ومحمود للحصول على نتائج الفحوصات.

كان محمود قد أخبر سارة بما حدث بينه وبين أحمد ولكنه أكد عليها ألا تخبر هدى بشيء الآن.

لم يكن أحمد مطمئنا، كان لديه حدسا قويا بأن هناك خطب ما، وتأكد هذا الحدس بعدما تسلم النتائج وذهب بها للطبيب الذي أخبره أن نتائج الفحوصات توضح أنه حاليا غير قادر على الإنجاب، وتحدث الطبيب كثيرًا بعد ذلك ولكن لم يسمع أحمد أيا مما قاله الطبيب، فلقد أغمض عينيه واسترجع، وانصرف وتبعه محمود صامتا.

هم محمود بالتحدث ولكن أحمد أشار إليه بأنه لا يرغب في الحديث، وطلب منه أن يتركه وحده، ومع إصرار أحمد على ذلك تركه محمود ولكنه ظل يراقبه من بعيد، توجه أحمد إلى الحرم، وظل جالسا أمام الكعبة صامتا، جلس محمود على مقربة منه دون أن يلاحظه، ظلا جالسين من بعد صلاة الظهر وحتى صلاة المغرب.

اتصل محمود بسارة ليخبرها بالأمر كي لا يقلقها تأخره، أما هدى فقد ظلت تتصل بأحمد مرات عديدة طوال النهار وفي كل مرة تجد هاتفه مغلقا،

١٣- أبو البقاء الرندي

ظلت تحاول أن تهدأ دون جدوى، وقبيل صلاة المغرب اتصلت بسارة علها تجد لديها خبرًا، طمأنتها سارة وأخبرتها أن محمود اتصل بها وأخبرها أن لديهما الكثير من العمل وأن هاتف أحمد غير مشحون ولكنها نسيت أن تخبرها، لم تصدقها هدى، فليس من عادة زوجها ألا يحدِّثها طوال اليوم، ولكن سارة أقسمت لها أنه بخير.

كادت هدى أن تجن، فلقد اقترب منتصف الليل ولم يحضر أحمد ولم يتصل بها كذلك، نزلت لسارة تبكي وتستحلفها أن تخبرها بما حدث، ولكن سارة أخبرتها ألا تقلق.

أما محمود فقد اقترب من أحمد قائلا: «ألم يحن وقت الذهاب بعد؟».

تفاجأ به أحمد، ولكن محمود أخبره أنه لم يكن قادرًا على تركه وحيدًا ولذلك ظل قريبا منه دون أن يشعر.

«أرجوك يا أحمد هيا بنا، زوجتك منهارة، ومعتقدة أنه قد أصابك مكروه، ولم تعد سارة قادرة على إقناعها بغير ذلك، ثق في تدابير الله يا صديقي، وهيا بنا».

لم ينطقا بأي كلمة طوال الطريق، وقف أحمد أمام البيت مترددا، كأنه لا يدري هل يجب عليه الدخول أم لا. فتحت هدى الباب وألقت بنفسها بين ذراعيه باكية، وهي تحمد الله أنه بخير.

نظر لها بوجوم، ثم تركها ودلف إلى غرفته.

تسمرت في مكانها غير مستوعبة ردة فعله، ذهبت إليه.

أخبرته أنها سوف تعد الطعام حتى ينهي تغيير ملابسه، همت بالذهاب ولكنها توقفت عندما أخبرها أنه في حاجة للنوم ولا يشعر بالجوع.

التفتت إليه قائلة: «ولكنك لم تتناول شيئا منذ الصباح».

نظر لها بسخرية قائلا: «وما أدراك بذلك؟!».

اقتربت منه قائلة: «أحمد؛ هل أنت بخير؟»

تجاهل نظرات الحيرة والقلق في عينيها، وقال بحدة: «نعم، هل يمكنني تغيير ملابسي لأنام، أم مازال التحقيق مستمرا؟».

صدمت من ردة فعله، لكنها آثرت الصمت، وجلست تنتظر.

خرج من الغرفة قاصدًا الحمام، وعندما تأخر في الرجوع ذهبت لتطمئن عليه لتتفاجأ به نائما على الأريكة، تسمرت أمامه، لكنه كان يغط في نوم عميق، أو هكذا ظنت. ذهبت وأحضرت غطاء ووسادة من الداخل، رفعت رأسه لتضعها على الوسادة، ثم دثرته جيدا، وقبلت رأسه وذهبت لتطفئ الأنوار، ولم تنتبه لدمعة فرت من عينه وهو ينظر إليها.

أسوء ليلة مرت عليهما منذ زواجهما، ظلت هدى تدور في الغرفة تفكر في التحول الغريب الذي حدث لزوجها اليوم.

حاولت ترتيب أفكارها، تذكرت آخر لقاء بينهما في الصباح الباكر قبل ذهابه للعمل، كلفها بترجمة ملف هام اقترب موعد تسليمه، وأخبرها أنه ذاهب لموعد هام مع محمود وطلب منها أن تدعو له من كل قلبها أن يوفقه الله.

هل هناك أخطاء في ترجمة الملف تسببت له في مشكلة في العمل؟ فتحت جهاز الحاسوب خاصتها وراجعت الملف سريعا، لكنها لم تجد شيئا.

هل حدثت مشكلة له في موعده؟ ولكن ما ذنبها في ذلك؟

فكرت في الاتصال بمحمود، لكنها تعلم أن زوجها يغار عليها، وقد يغضب إذا فعلت ذلك.

أرسلت لسارة رسالة طلبت منها أن تسأل محمود عن حال أحمد، لكنها لم تتلق أي جواب مما جعلها تظنها نائمة.

أما أحمد فلم يكن في حال أفضل، يذبحه شعوره بعجزه، ويدمي قلبه تعامله مع حبيبته بتلك الطريقة الفجة.

نيران مشتعلة في داخله لا يعرف كيف يطفئها، هل يخبر هدى بالحقيقة، لكنه يعلم جيدا أنها لن تتردد في قبوله كما هو، فهم يعلم أنها تعشقه، لكنه كذلك يعلم أنها تتمنى طفلا، وهو لن يتمكن من تحقيق أمنيتها، هل يطلقها؟ ولكنها وحيدة، فكيف يتركها وهو يعلم أنه عالمها الوحيد وأنه سندها.

ثم يعود ويفكر أن وحدتها تلك تجعل طلاقهما لا مفر منه، فهي في حاجة لطفل تشدد به أزرها ويكون سندا لها في كبرها، فماذا ستفعل لو مات وتركها وحيدة دون ابن أو سند؟ لكنه يذوب عشقا لها ولا يتخيل حياته بدونها، لكن يجب عليه أن يتخلى عن أنانيته ويفكر في مصلحتها، وبعد أن وصل لهذا القرار، بدأ يفكر في كيفية التنفيذ.

ولم يكن حال سارة ومحمود بأفضل من حالهما، فلقد أخبر محمود سارة بكل ما حدث، وبالطبع انهارت سارة لسماع ذلك عن أخيها، لكن لم يكن ذلك ما يشغل محمود، فلقد كان منشغلا بمصير زواج صهره وصديقه، نقل مخاوفه لزوجته ثم سألها: «هل تظنين أن هدى ستقبل الاستمرار مع أحمد في ظل المعطيات الجديدة؟».

نظرت له سارة بحدة قائلة: «ماذا تقصد؟ هل يمكن لهدى أن تترك أحمد؟».

«أوليس هذا حقها؟ أليس من حقها أن تصبح أما؟».

«أي حق هذا الذي تتحدث عنه، هل تتخلى عن زوجها في محنته؟ وماذا عن الحب، هل يذهب في مهب الريح؟».

«عجيب أمرك يا سارة، هل سيكون رأيك نفسه إذا انقلبت الآية؟».

«ماذا تعني؟».

«أعني أنك أنت التي ألححت عليها أولا للذهاب للطبيبة لتأخر الإنجاب، ثم ألححت عليَّ كي أقنعه بالذهاب هو أيضا، أخبريني لو كان عدم الإنجاب راجعا لها، هل رأيك وقتها سيكون نفسه؟».

نظرت له بوجوم ثم قالت بخفوت: «ولكن أحمد لم يكن ليتركها وقتها».

«أسألك عن موقفك أنت وليس موقف أحمد، فأنا أعلم موقف أحمد جيدا».

أشاحت بوجهها وقالت: «لا أدري».

«بل أنا متأكد الآن أنك كنت لتقنعيه إما بتركها أو بالزواج بأخرى؛ عجبا لك!».

«دعك مني الآن، وأخبرني ماذا سنفعل، هل أخبر هدى؟ لقد أرسلت لي رسالة تطلب مني أن أسألك عما حدث اليوم، يبدو أن هناك خطب ما حدث بينهما».

«لا تخبريها بشيء حتى أرى أحمد وأعرف ما الذي ينوي فعله، وحاولي ألا تلتقي بها غدًا، حتى لا يظهر عليك شيء».

****

ثلاثة أيام مرت، لم يتحدث أحمد خلالها مع هدى إلا بكلمات مقتضبة للغاية، كان يقضي اليوم بأكمله في العمل ولا يحدثها بل يثقل عليها في

العمل حتى لا تجد هي الأخرى وقتا للتفكير، كما كان يحاول أن يشغلها عن متطلبات البيت فتقصر فيها كي يتمكن من افتعال أي سبب للخلاف، لكنها لم تقصر، وبعد عودته تحاول أن تحدِّثه أو تتقرب منه لكنه يصدها، وكلما سألته عما به، يخبرها أنه ضغط العمل.

أصبح عصبيا لأقصى حد، رفض اصطحابها معه للحرم في صلاة الفجر كعادتهما، ولم يعد يتناول أي طعام في البيت، وهو ما انعكس عليها فلم تعد تأكل هي أيضا، فعندما رأتها سارة التي كانت تتجنب لقائها، وجدتها وقد فقدت نضارتها ووزنها.

نظرت لها هدى بعتاب وقالت لها أعلم أنك تتجنبين لقائي ولكني ما زلت أنتظرك.

وحتى في يوم الإجازة، خرج أحمد منذ الصباح، ولحق به محمود عندما رآه يخرج.

تحدث معه محمود سائلا إياه عما ينوي فعله، أخبره أنه يحاول أن يستفز هدى طوال الأسبوع الماضي، لكنه فشل في ذلك، كما أن مقاومته بدأت تنهار وهو يراها تذبل أمامه دون ذنب اقترفته، لذا فقد قرر أنه سيخبرها برغبته في الانفصال.

نظر إليه محمود قائلا: «أراك ترتكب أكبر خطأ في حياتك».

«ما يهمني الآن هو أن أؤمن لها حياتها بعد انفصالنا، لا أقصد من الناحية المادية، فهي ليست في حاجة لذلك والحمد لله، ولكني أريد أن أضمن زواجها من ماجد».

«يبدو أنك قد فقدت عقلك تماما، هل تعي ما تقول؟ تريد أن تطلق

زوجتك وتزوجها لشخص آخر؟ إذا كانت لا تعنيك في شيء فعلى الأقل دعها تقرر مصيرها بنفسها».

صرخ فيه أحمد محتدًا: «وهل تظن ذلك سهلا علي؟ كلامي ذلك يقتلني ألف مرة، ولكنني أخاف عليها، ماذا ستفعل لو مت وتركتها وحيدة، أريد أن أؤمن لها حياة أسرية، وماجد هو الوحيد الذي سيحافظ عليها ويصونها».

«وماذا لو رفضت الزواج من ماجد، أو رفض ماجد الزواج منها».

«ماجد لن يرفض، فأنا أعلم أنه يكن لها الكثير من الحب، كما أنه لن يتخلى عنها، فهو يحافظ على علاقة جيدة معي ليبقى مطمئنا عليها دون أن يكون بينهما أي تواصل مباشر بناء على وصية والده رحمه الله، أما عن هدى فسوف أبذل ما يمكنني لأجعلها توافق على هذا الزواج، حتى وإن اضطررت للجوء لطرق ملتوية».

«لا يمكنني تركك تفعل ذلك يا أحمد، وسأ ...».

قاطعه أحمد حازما: «لم أطلب رأيك، وهذا قراري الأخير».

صمتا تماما وكل منهما ينظر للآخر، لا يدري ما الذي يجب عليه فعله، قطع ذلك الصمت محمود قائلا: «فهلا ذهبنا للحرم، علك تستخير الله هناك قبل أن تبدأ ما تنويه؟».

ذهبا معا وصلا صلاة العصر، ثم ظل أحمد يدعو الله أن يوفقه لما يحب ويرضى، أما محمود فقد أرسل رسالة لزوجته أخبرها فيها أن تروي لهدى الأمر كله وتخبرها سر تغير أحمد، وتترك لها حرية التصرف لأن أحمد في طريقه لتصرف مصيري معها.

وبالفعل صعدت سارة لهدى التي استقبلتها بلهفة وهي تسألها: «هل قررت التحدث معي أخيرًا؟».

دلفت سارة للداخل وقصت على هدى كل ما حدث، لم تزد حرفًا واحدًا عما قاله لها زوجها، بل كانت تنظر لها بترقب منتظرة ردة فعلها التي أدهشتها كثيرًا، إذ انفرجت أسارير هدى وضحكت من قلبها ثم خرت لله ساجدة شكرا له.

نظرت لها سارة باستغراب وقالت: «ما الذي تفعلينه يا هدى؟».

«أتفهم شعور أحمد تماما يا سارة، وقد ألتمس له العذر فيما فعل، لكن كيف أمكنك أن تتركيني في حيرتي، تلاطمني الأفكار السيئة تجاهه وتجاه نفسي، هل اعتقدت حقا أن شيئا كهذا قد يؤثر على مشاعري وحياتي مع أخيك؟».

«كنت أريد أن أخبرك يا هدى ولكن محمود طلب مني ألا أفعل حتى يعرف ما الذي يفكر فيه أحمد، أحمد نفسه لا يعرف أنني أعرف، لكن منذ قليل أرسل لي محمود رسالة أخبرني فيها أن أخبرك ففعلت».

صمتت هدى قليلا ثم قالت: «اسمعيني جيدا وانتبهي لما أقول، لا يجب أن يعرف أحمد أنني أعرف أي شيء، بالتأكيد هو يشك أن محمود أخبرك، ولكنه يجب أن يبقى متأكدا أنني لم أعرف أي شيء، أما الآن فيجب أن يعرف أحمد أنني أعاني من العقم وأنني قد أخفيت عنه هذا الأمر».

نظرت لها سارة مستنكرة ما تقول وقالت «هل جننتِ، كيف تتدعين على نفسك ذلك؟».

«اسمعيني جيدا، هذا هو الشيء الوحيد الذي سيجعل أحمد يقبل الاستمرار معي فأنا أعرفه جيدا، وأعتقد أنه يرتب لأمر ما لإنهاء زواجنا،

لكن إذا عرف أنني عقيم فلن يتخلى عني».

«وكيف سنخبره بذلك، لو أخبرته أنا أو محمود بذلك فلن يصدق».

«لن يخبره أي منكما، أنا سأفعل، سأخبره أن الطبيبة أخبرتنا بذلك وأنني أقسمت عليك ألا تخبري أحدًا.

ربما يأتي أحمد ليسألك عن ذلك، أريدك وقتها أن تخبريه أنك كنت تتجنبين لقائي بسبب ذلك وتبحثين عن طريقة لإخباره، أرجوك يا سارة أنا أعتمد عليك كثيرا في ذلك، لذا لا يجب أن يشعر بأننا نكذب عليه».

نظرت لها سارة ممتنة، لم تدر بم تجيبها، تذكرت سؤال محمود لها: هل كانت ردة فعلك نفسها لو انقلب الوضع؟ خجلت من نفسها واحتضنت صديقتها وبكت.

ربتت هدى على كتفها وطلبت منها أن تنزل وترسل لمحمود تطمئنه، وأن تخبرها إذا علمت موعد عودتهما.

وبعد صلاة العشاء عاد أحمد، استغرب عندما فتح الباب ولم يجدها في انتظاره كالمعتاد، بحث عنها فوجدها تجلس ساهمة على الأريكة التي اعتاد النوم عليها مؤخرا، وعندما انتبهت لحضوره نظرت إليه وقالت ساخرة: «حمدا لله على سلامتك، ظننتك تعود متأخرا كعادتك تلك الأيام».

شيء ما في صوتها أنبئه أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

فكر أن هذه قد تكون الفرصة التي ينتظرها ليتشاجر معها، نظر إليها وقال: «أعود وقتما أريد وأتأخر وقتما أريد»، ثم توجه إلى غرفتهما لكنها قطعت عليه طريقه بطريقة جعلته يتسمر مكانه للحظة من المفاجأة قبل أن تقول: «أريد أن أتحدث معك».

«ليس الآن، فأنا متعب وفي حاجة للراحة».

صرخت في وجهه قائلة: «بل ستتحدث معي الآن وإلا فسيحدث ما لا تحمد عقباه».

لم يعهدها في هذه الحالة من قبل، طوال الأسبوع يحاول أن يستفزها لكنه فشل في ذلك، فهل تراه نجح؟!

أزاحها من أمامه ودخل، لكنها جذبته من كتفه وقالت له: «انظر إليَّ وواجهني، أخبرني أنك عرفت الحقيقة ولذلك تتهرب مني حتى تصل لقرار»، وبدأت في النحيب قائلة: «كنت أعلم أنها ستخبرك، كنت متأكدة أنها لن تنتظر حتى أجد طريقة أخبرك فيها بنفسي الحقيقة، لكنك وعدتني أنك لن تتركني مهما حدث، فلماذا نكثت وعدك لماذا؟».

ظلت تكرر كلماتها وهي تبكي بكاء مريرا وتضربه بكلتا يديها على كتفيه، لكنه أمسك يديها بقسوة وسألها: «أي حقيقة تلك التي تتحدثين عنها، ومن تظنين أنها أخبرتني بها؟».

«لا تحاول إخفاء الأمر عني، فأنا متأكدة أن سارة أخبرتك بما قالته لنا الطبيبة أنني لن أتمكن من الإنجاب أبدا».

صعق مما قالت، ألجمته المفاجأة للدرجة التي جعلته يفلتها من بين يديه، فسقطت على الأرض ووضعت وجهها بين كفيها باكية، ذرفت دموعها التي حبستها طوال أسبوع مضى.

قطَّع بكاؤها نياط قلبه، اقترب منها وجثا على ركبتيه أمامها، حاول أن يضمها إليه لكنها انتفضت ودفعته بعيدا عنها، اقترب منها مرة أخرى وضمها إليه وظل يربت على ظهرها ويمسح على رأسها وهو يقول: «أقسم

لك أن سارة لم تخبرني شيئا، وأنها المرة الأولى التي أعرف فيها ما قلتِ، الأمر مختلفا تماما عما ظننتِ».

هدأت حدة بكائها واستكانت بين ذراعيه، وقالت: «أرجوك يا أحمد لا تتركني، لن أمانع إذا تزوجت بأخرى لتنجب منها، ولكن دعنا لا نفترق، لا أقوى على فراقك».

«الأمر ليس كما تظنين يا هدى، اهدأي يا حبيبتي حتى نتمكن من الحديث، توقفي عن البكاء وأخبريني أولا: ماذا قالت لكِ الطبيبة، وماذا عن سارة؟».

قالت بخفوت: «أخبرتني الطبيبة أنني لن أتمكن من الإنجاب بسبب وجود مشكلة ما في الرحم، وأضافت: إنه لا ينبغي أن أيأس من رحمة الله، وأن المعجزة قد تحدث يوما ما، اسودت الدنيا في عيني ومادت الأرض تحت قدماي؛ طلبت من سارة ألا تخبرك وأن تدعني أخبرك بنفسي عندما أجد اللحظة المناسبة، لكن يبدو أنها لم تطق الانتظار، ولا يمكنني أن ألومها فمن حقها أن ترى ذرية أخيها، كنت سأخبرك يا أحمد لكنني خشيت أن تتركني، كنت أفكر أن أقنعك أولا بفكرة الزواج الثاني وإذا ما أخفقت في ذلك كنت سأخبرك، لكنك نبذتني من حياتك بمجرد أن أخبرتك سارة، وتركتني كريشة في مهب الريح، لم أعد أتحمل تجاهلك لي وابتعادك عني، ظننتك على عهدك لي بأنك لن تتركني، لكنك خلفت عهدك».

نظر لها بأسى وأغمض عينيه ليهدأ قليلا، ثم قال: «لم تخبرني سارة بشيء يا هدى، ولكن هناك ما لم أخبرك به، سامحيني».

«فكيف عرفت الحقيقة؟».

«للحقيقة شقان كل منا كان يعرف أحدهما، وقد أخبرتني بالشق الذي كنت أجهله، وحان دوري الآن».

«لم أخلف عهدي لك يا هدى، لكنني ذهبت لإجراء الفحوصات الطبية ونتائجها بينت لي أنه لا يمكنني الإنجاب، وكما حدث معك تماما، اسودت الدنيا أمامي، ليس اعتراضا على أمر الله، لكنني كنت أعلم شوقك لتكوني أما، وبعد تفكير طويل اتخذت قرارًا؛ أنه لا يحق لي استغلال مشاعرك لتظلي معي، و....».

قاطعته قائلة: «هل عاملتني كذلك لأتركك يا أحمد؟ ألم تفهم بعد أن حياتي مرتبطة بك؟ ألم تدرك أنني أشتاق لأكون أما لطفل أنت أبوه، أن تتحرك داخلي قطعة منك، ومنك وحدك؟ كيف تخيلت ذلك كيف أخبرني!».

أطرق برأسه ولم يجب، بل الأحرى أنه لم يجد ما يجبها به، هل كان أنانيا عندما فكر في إبعادها عنه؟ كيف ذلك وكل ما أراده هو سعادتها! لكنه يعلم أن سعادتها معه كما أن سعادته معها، فكيف هانت عليه هكذا؟ بل الأدهى والأمر أنه فكر أن يزوجها لغيره! هل ستسامحه يوما إذا علمت أنه فكر في ذلك؟!

وكذلك هي؛ ظلت صامتة، كانت تلك هي المرة الأولى التي تكذب فيها.

لم تعتد الكذب، هل تراه سيسامحها يوما إذا عرف بكذبها؟ كذبت بشأن مرضها لكنها لم تكذب بشأن مشاعرها، كل كلمة نطقت بها وكل دمعة سكبتها كانت من قلبها، دموعها كانت لبعده عنها لذا كانت صادقة، لكن يظل الكذب كذبا.

أصبح لكل منهما سر يخفيه عن الآخر، فكان ذاك السر هو اللبنة الأولى في جدار نشأ بينهما، فهل تراه يكتمل أم تذوب تلك اللبنة في نهر حبهما؟

(٩)

عام آخر مر عليهما معًا، أصبح كل منهما شديد الارتباط بالآخر، يدرأ عنه شعوره بالنقص، ويجد فيه ما ينسيه مصائب الدنيا.

سألتها سارة يوما: «ألم تشعري يوما يا هدى بأنه ما كان يجدر بك التضحية بما ضحيتي به من أجل أحمد؟».

«لم أضح بشيء ذي قيمة من وجهة نظري يا سارة، بالعكس؛ أجد الحياة أسهل بلا أطفال. خلقنا الله في الدنيا لنعبده، وخلال حياتنا نخضع لسلسلة من الاختبارات على شكل ابتلاءات أو نِعَم، أشعر أننا كالطلبة نخضع لاختبارات مختلفة ومتعددة، فمن وهبه الله أبناء؛ زادت مسؤولياته وزادت مواد اختباره، ومن لم يهبه الله أبناء، فقد قلت مواد اختباره، أخبريني الآن من هذا المنطلق، كيف لي أن أرى أن اختيار الله لي تضحية؟ ومن ناحية أخرى أنا أعشق زوجي يا سارة؛ أحمد هو الهواء الذي أتنفسه، لا يمكنني أن أتخيل حياتي بدونه، وأثق أنه يحبني كذلك، فكيف لي أن أضحي به لسبب لا دخل له فيه! ومن يعلم، فقد يهبنا الله يوما ذرية صالحة دون حول منا ولا قوة، وما ذلك على الله بعزيز».

نظرت لها سارة بتأثر ودمعت عيناها وقالت: «لا أجد من الكلمات ما قد يوفيك حقك، ولكني أدعو الله أن ينعم عليكما بالخير كله ظاهره وباطنه، وأن يبعد عنكما ما يكدر صفو حياتكما».

****

اتصل أحمد بسارة ذات صباح: «سارة، هدى مريضة للغاية، يبدو أنها قد أصيبت ببرد في معدتها، لم تتوقف عن القيء طوال الليل، أرجوك امكثي معها لمدة ساعة حتى أذهب لإنهاء بعض الأوراق المهمة، ثم آتي لأخذها للطبيبة».

«لا تقلق يا أخي، اذهب أنت لعملك وسأذهب معها للطبيبة و ...»

قاطعها قائلا: «لا، بل امكثي معها حتى أعود وسأذهب أنا معها».

لم يتأخر أحمد، بل عاد بعد حوالي نصف ساعة، وجد زوجته نائمة وبجانبها سارة التي أخبرته ألا يوقظها ويتركها لتحصل على قسط من الراحة.

استبد القلق بأحمد على زوجته، فلقد ظلت نائمة طوال النهار، وقبيل صلاة المغرب أيقظها ليطمئن عليها وكذلك لتتمكن من إدراك صلاتي الظهر والعصر.

قامت لتصلي ولكنها ما لبثت أن سقطت مغشيا عليها.

لم يشعر أحمد بنفسه إلا وقد حملها وانطلق بها نحو المشفى القريب، ظل يدعو الله ويتضرع إليه ألا يريه فيها بأسا يشقيه، وأن يسبغ عليها ثوب العافية.

وبعد إجراء الفحوصات والتحاليل خرجت الطبيبة لتبارك له حمل زوجته، وتخبره أنه يمكنه الدخول إليها.

بدا أحمد وكأنه غير مستوعب لما تقول، سأل الطبيبة بحذر عما تعنيه، فأجابته بدهشة أن زوجته حامل في حوالي سبعة أسابيع.

خر أحمد ساجدًا لله مجهشا في البكاء، ثم دخل إلى زوجته التي لم تتوقف عن البكاء فرحًا بعد أن أخبرتها الطبيبة بحملها.

ومن بين دموعها قالت: «أتذكر آخر عمرة أديناها منذ حوالي ثلاثة

أشهر؟ يومها شربت من زمزم حتى ارتويت وسألت الله أن يجعلها سببا في هبة لنا من عنده ثم أعطيتك الكوب لتكمله، ولم أدر أن الله قد استجاب ووهبنا ما أردنا!».

أعطتها الطبيبة بعض المقويات وأوصتها بالراحة والتغذية السليمة.

ولم يظن أحدهما مجرد الظن أن ما ظنا أنه يجمعهما سيكون سببا في فراقهما.

****

«ألا زلتِ على حالتكِ تلك؟ ألم تهدأ ظنونك وتتقي الله في صديقتك؟».

قالها محمود لزوجته التي مضى أسبوع لم تذق النوم خلاله، من بعد أن أخبرها أحمد بمعجزة شفاءه وهدى وحملها.

وقتها شحب وجهها ولم تدر بما تجبه، ومن شدة فرحته لم ينتبه للتغيير الذي أصابها، وطوال أسبوع لم تصعد سارة إلى هدى لتهنئتها ولا حتى حدثتها.

تحدثت مع زوجها بما يدور في رأسها قائلة: «أنا وأنت نعرف أن هدى ليست عقيما، وأن سبب عدم الإنجاب يعود لأحمد، فكيف حدث هذا الحمل؟».

«هل جننت يا سارة؟ ألا تدركين معنى كلماتك؟ أنت تخوضين في عرض زوجة أخيك وصديقتك، بل في عرض امرأة مسلمة محصنة!».

ردت عليه محتدة: «أنا أسأل عن واقع وعن حقيقة لست أنا من قررها».

«ولماذا لا تفكرين أنها قد تكون رحمة من الله بهما، أليس الله على كل شيء قدير؟».

«بلى الله على كل شيء قدير، لكن كما قلت أنت «قد»، وقد لا يكون ذلك صحيحًا، أرى أنه لابد أن أخبر أحمد بكل شيء».

«هل ستتحملين هذا الوزر أمام الله؟ هل تعلمين عقوبة قذف المحصنات؟»

«أنا لم أتهمها دون مبرر، صحيح ليس لدي شهود، لكن ليطمئن قلبي لابد أن أخبر أخي، فليذهب ويجري الفحوصات مرة أخرى عله شفي، ولكن لن أظل صامتة هكذا».

«أي فحوصات تلك التي ستطلبين منه إجراءها؟ هل تظنين أن أي رجل في العالم يمكن أن يتقبل ما تقولين؟».

«لقد اتخذت قراري يا محمود ولا شأن لك به، سأتحدث مع أخي وليكن ما يكون».

****

استقبلت هدى زوجها مبتسمة: «حمدا لله على سلامتك، تأخرت كثيرا اليوم ....»

بترت عبارتها، شيء ما في نظراته أخبرها أن الأمور ليست على ما يرام.

أزاح يديها من حول رقبته ومد يده إليها بمجموعة من التقارير الطبية وسألها: «هل يمكنك ترجمة تلك التقارير يا أستاذة؟».

اسمها كان ظاهرًا على التقارير بوضوح، لم يكن الأمر في حاجة للذكاء لتدرك أنها تقاريرها التي كانت لدى سارة، والتي تؤكد قدرتها على الإنجاب.

تراجعت للوراء قليلا ثم قالت بهدوء: «ولكنك أكثر براعة في ترجمة التقارير الطبية».

لم تكن قد أدركت بعد ما يفكر فيه، ظنته يلومها على كذبها عليه، ولم تدرك أن الأمور وصلت لأبعد مما تظن.

«إذًا فأنت تعترفين أن تلك التقارير تخصك».

«نعم».

هوى على وجهها بصفعة أسقطتها أرضا، نظرت له غير مصدقة لما فعل.

تحجرت العبرات في عينيها وقالت: «كذبت عليك لأنني لم أرد أن ابتعد عنك، أرجوك حاول أن ...».

قاطعها وهو يمسكها من ذراعها ويجبرها على الوقوف أمامه صارخا: «من هو أبو الطفل؟».

شهقت لدى سماعها ما يقول، لم تظن أبدا أن يصل الأمر به لأن يطعن في شرفها وعرضها، ظنته يعاتبها على كذبها، ولم تنتبه إلى أن ذلك أوصلها لتصبح متهمة بالزنا!

شعرت بالكلمات تختنق في حلقها، خرج صوتها متحشرجًا لدرجة أنها هي نفسها لم تتمكن من تمييز ما تقول.

ظل يصرخ فيها ويضربها وهو يضغط على ذراعيها بكلتا يديه حتى كسر محمود وسارة الباب عليهما وخلصاها من بين يديه.

سقطت على الأرض وهي ترتجف وتصرخ من الألم، أمسك به محمود بأقصى قوته حتى لا يصل إليها مرة أخرى، صرخت فيه سارة: «هل جننت، أخبرتك لكي تجري التحاليل وتتأكد قبل أن تتهمها وتفعل ما تفعل؟!».

حاول محمود جذبه للخارج، لكنه صرخ في هدى أن تخرج من بيته الآن.

أخرجه محمود من البيت ولحقت بهما سارة، وظلت هدى في مكانها

ترتجف، لم تكن قد استوعبت الأمر بعد، تحدثت إلى نفسها قائلة: «هل أنا متهمة بالزنا!».

لم تستطع أن تقوم من مكانها، لم تتمكن حتى من ذرف دمعة واحدة، ظلت في مكانها فقط، وعندما سمعت أذان الفجر قامت لتصلي وكأنها مسيرة.

لم يعد أحمد في تلك الليلة إلى البيت بعدما أخرجه محمود منه، ذهب إلى الحرم ومكث هناك يصلي، ظل يومين خارج البيت، لم يعد إليه حتى هدأ تماما.

عندما دخل إلى البيت وجدها تجلس في نفس المكان الذي تركها فيه، نظرت إليه بوجه شاحب ونظرات زائغة، سألها: «أما زلت هنا؟».

اقتربت منه وقالت: «وأين عساي أذهب؟».

التفت إليها وقال بحزم: «لا شأن لي. يمكنك الذهاب أينما أردت».

«لم أفعل أبدا ما يغضب الله يا أحمد، كذبت عليك فقط لأنني لم أرد أن ابتعد عنك وتتركني، لكن أقسم لك بالله لم أكن يوما زانية، كيف يمكنك أن تظن بي هذا الظن ...!»

«لا أريد أن أسمع أي شيء، ولا أريد أن أراك، ولولا أنني أريدك أن تنالي عقوبتك لكنت طلقتك، سأنتظر حتى يوم ولادتك وأرى من ستكتبينه أبا للطفل في حالة رفضي لذلك، والآن أرجو أن تتركي هذا البيت فورًا، وإلا فسيحدث ما لا يحمد عقباه».

«ألم تسأل نفسك متى قابلت شخصًا ما وزنيت معه؟ لم نفترق يوما أنا وأنت وكنا معا دائما فمتى حدث ذلك؟».

«ما عندي قلته، ولن أكرره، أخرجي من بيتي الآن».

«وإن، لم أفعل؟».

«سوف أبلغ عنك الشرطة».

«أغمضت عينها ألما؛ أيمكن أن تكون النهاية هكذا؟».

قامت من مكانها وخرجت متجهة إلى شقتها التي كانت تسكنها قبل زواجهما، استأذنته أن تأتي في الصباح بعد خروجه لتأخذ متعلقاتها فوافق دون حتى أن ينظر إليها.

****

شهر كامل مر على ذلك اليوم، شهر كامل لم يكلف نفسه عناء السؤال عنها، حاولت أن تتحدث إليه فرفض، كانت تفتح بابها لتراه ويراها عساه يعود لرشده فيغلق بابه في وجهها، لم تذرف دمعة واحدة حتى الآن وكأن الدموع تأبى أن تقضي على ما تبقى من كرامتها.

وأخيرا اتخذت قرارها، لابد لها من الرحيل فلن تتمكن من الاستمرار في المملكة في ظل الظروف الحالية، فكرت في الاتصال بماجد، لكنها تعلم أن الأمور قد تزداد سوءًا باتصالها به. عادت وحيدة كما كانت بل ربما أسوء.

هل تعود إلى مصر؟ وكيف تفعل وكيف تحيا مع طفل وحدها وهي غريبة لا يعرفها أحد، لم يكن أمامها سوى خيار واحد... الولايات المتحدة.

وهكذا كان القرار.

أنهت توثيق كل أوراقها، وخرجت بجواز السفر الأمريكي، فجواز السفر المصري لا يتيح لها الخروج من المملكة دون إذن زوجها، دعت لجدتها بالرحمة فلقد سترتها حية وميتة!

****

انتبهت من شرودها على صوت المضيفة تطلب منها ربط حزام الأمان لقرب هبوطهم في نيويورك، أحقا شردت طيلة ما لا يقل عن اثنتي عشرة ساعة؟

بعد خروجها من المطار، توجهت إلى أحد الفنادق التي كانت قد حجزت فيها من خلال الإنترنت، كان يمكنها الذهاب لبيت جدتها فلقد نقلت جدتها ملكية البيت باسمها عندما كانتا تعيشان فيه، ولكنها لم تفعل لسببين، أولهما: أنها لم تبلغ المستأجر بعد برغبتها في أن يخليه، وثانيهما: أنها فكرت أن ماجد سيعرف بذلك، فهو المسؤول عن متابعة الأمور الخاصة بالبيت وإيداع قيمة الإيجار في حسابها، كما أنها لم تقرر بعد إذا كانت ستستمر في الإقامة هنا أم لا.

****

(١٠)

أسبوع مر على وصولها، حاولت فيه قدر الإمكان التأقلم مع ظروفها الجديدة. ذهبت لأقرب مشفى لتطمئن على صحة جنينها وتجري بعض الفحوصات وسجلت فيه لمتابعة الحمل، قابلت «نور» صديقتها الوحيدة التي تعرفت عليها أثناء إقامتها مع جدتها، والتي ظلت على تواصل مستمر معها طيلة السنوات السابقة، روت لها كل ما مر بها مؤخرًا وكأنها تلقي عليها بهمومها التي أثقلت كاهلها.

كان عمل نور يحتم عليها كثرة السفر والتنقل كونها تعمل مراسلة صحفية في إحدى القنوات الإخبارية، لذا كان على هدى أن تكون وحيدة معظم الوقت، لكن نور وعدتها بأن تكون موجودة معها يوم ولادتها وألا تتركها وحدها.

ساعدتها نور على العمل مترجمة في القناة التي تعمل بها، وعرضت عليها نور الانتقال للعيش معها، لكنها رفضت واستأجرت منزلا بالقرب من منزل نور ليسهل عليهما التواجد معا.

حرصت هدى على الذهاب للمسجد والمركز الإسلامي بصفة مستمرة، فلقد كانت جدتها تحرص دائما على ذلك أثناء إقامتهم، ومبررها في ذلك أن الجاليات المسلمة في المهجر خير سند لبعضهم البعض.

أيام وأيام مرت بها، لم تنس فيها زوجها يوما، صحيح أن دموعها جفت وانغمست في حياتها الجديدة، لكن قلبها مازال ينزف دما.

سجلت في مفكرتها كل ما يخص حملها وكل حركة لجنينها، وضعت فيها صور الموجات التليفزيونية «السونار» التي كانت تجريها أثناء متابعة الحمل، كانت تنتظر اليوم الذي يدرك فيه أحمد حقيقة الأمر، لم تكن تريد أن تنسى كل دقيقة مرت عليها دونه، أرادته أن يحيا على الورق الحياة التي حرم منها معها.

لم يكن هناك سببا لانتظارها، فلقد أغلقت كل وسيلة يمكن أن يصل من خلالها إليها؛ سافرت بجواز سفرها الأمريكي، أي أنها على الورق مازالت في المملكة؛ لأن زواجها منه كان بجوازها المصري، أغلقت صفحة «الفيسبوك» خاصتها التي يعرفها وأنشأت صفحة أخرى، وكذلك بريدها الإلكتروني، لكن ظل الأمل بداخلها أن يعثر عليها ويستعيدها.

وحانت اللحظة المرتقبة، ووفت نور بوعدها وكانت مع صديقتها في هذا اليوم، وضعت هدى حملها، وهبها الله «حسام وحياء»، وانقلبت حياتها رأسا على عقب مع ميلادهما.

وكأن الله يعوضها عن زوجها بقطعتين منه بين يديها، أصبحا النور الذي ترى به والأمل الذي تحيا لأجله.

بالطبع لم يكن هناك بدا من الاستعانة بإحدى المربيات لمساعدتها وخصوصا في غياب نور، لكنها تولت أمر طفليها بنفسها وتركت بقية أمور البيت للمربية، لم تكن ترغب أن تبتعد عنهما ولو للحظة واحدة تماما كما لم تبتعد عن أحمد طوال عامين قضتهما معه.

****

شهران كاملان مرا على اختفاء هدى، في البداية لم يلتفت أحمد إلى أنها لم تعد تفتح بابها عند عودته، لكنه انتبه فجأة لذلك، لم يعر الأمر انتباها في البداية، ولكن شيئا ما أخبره أن الأمور ليست على ما تبدو عليه من هدوء.

طوال هذين الشهرين كان في أسوء حالاته، عصبية شديدة في العمل أثرت بالسلب عليه في البداية لكنه سرعان ما تحكم في غضبه، فطوال عمره لم يسمح لمشاعره الشخصية أن تؤثر على عمله، أو هكذا كان يظن.

وبعد ثلاثة أشهر تقريبا هدأت ثورة الشك والغضب المستعر في داخله، هل نسيها؟ ربما هو نفسه لم يعد يهتم.

سأله محمود يوما: «هل أنت حقا مقتنع بما اتهمت به زوجتك؟».

نظر لمحمود متفاجئا بسؤاله، ثم أجاب: «ما جدوى هذا السؤال الآن؟ كل شيء قد انتهى».

«هل طلقتها؟».

«لن أطلقها حتى تنال عقوبتها».

«إذاً لم ينته الأمر بعد».

احتد عليه أحمد قائلا: «لماذا تحدثني عن ذلك الآن، هل تحدثت معك؟».

نظر إليه محمود بهدوء وقال: «أنا لا أعرف أين هي من الأساس، هل تعرف أنت؟ أما لماذا أحدثك الآن، فلقد انتظرتك حتى تهدأ، فقبل ذلك كان هناك شيطانا يتحرك في داخلك ويعميك عن الرؤية، أما الآن فقد شعرت أنك أهدأ نفسا؛ لذا دعني أكرر سؤالي لك مرة أخرى وحاول أن

تجب نفسك قبل أن تجيبني، هل ترى زوجتك حقا زانية؟ سؤال آخر يا أحمد فكر فيه جيدا، قبل أن تعرف أنها كذبت عليك بخصوص عدم قدرتها على الإنجاب صدقت أن الله قد أنعم عليكما معا بالشفاء فحدث الحمل، أما عندما علمت الحقيقة تجاهلت قدرة الله على شفائك وصدقت أنها زانية، أليست قدرة الله واحدة؟ فلماذا صدقتها مرة وأنكرتها مرة أخرى؟».

اهتز أحمد من وقع الكلمات عليه، ربما تكون تلك هي المرة الأولى التي يستوعب فيها حجم الاتهام الذي اتهمها به.

تهاوى على مقعده واضعا وجهه بين كفيه، حيرة شديدة سيطرت عليه بعد سماعه كلمة «الزنا».

أيعقل ذلك؟

كان هذا بالضبط ما يرمي إليه محمود، أن يضعه في تلك الحيرة، لذا فقد انتظر حتى هدأ شيطانه ليلقي بالكلمة في وجهه، محمود لم يصدق يوما أن تفعل هدى ذلك، ومنذ ذاك اليوم الذي أخبرت فيه سارة أحمد بذلك عن زوجته ساءت علاقته بها، هي نفسها أصبحت نادمة على فعلتها بعد أن رأت ما آلت إليه الأمور.

وبعد عودته للمنزل، وقف أحمد أمام بابها، نظر إليه وأوشك أن يطرق الباب، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.

دخل بيته، وجلس يفكر في سؤال محمود: هل هو حقا مقتنع بما اتهمها به؟ لماذا صدق قدرة الله ثم عاد وجحدها؟

وبينما هو غارق في فكره، سمع طرقات على بابه، قام ليفتح الباب ليجد

والده مع محمود، وبقدر فرحته وشوقه له بقدر ارتباكه لدى رؤيته، وما لبث أن ارتمى في حضن أبيه يبكي كطفل صغير، فأصيب والده بالهلع لرؤية ابنه على تلك الحالة.

أول من كسر حاجز الصمت كان والده، فبعد أن سلم عليه سأله عن زوجته.

صمت أحمد وأطرق برأسه أرضا، ثم تهرب من السؤال وسأل والده كيف حضر وماذا عن والدته، أخبره أن محمود أرسل لهما دعوة للزيارة وأداء العمرة، وأخبرهما أنه قد أعدها مفاجأة للجميع، أخبره أيضا أن والدته تجلس مع سارة في انتظارهما وأن محمود اقترح أن نصعد معا لإحضارك حتى تعود هدى لأنها غير موجودة الآن.

تدخل محمود موجها حديثه لهما: «هيا بنا لننزل لهما قبل أن تتعقد الأمور بين سارة ووالدتها»، لم يفهم والد أحمد معنى الكلام، لكنه قام معهما وذهبوا جميعا لبيت محمود وسارة.

****

خيم الصمت على الجميع بعد ما روى محمود كل ما حدث، وأوضح للجميع أنه من انتظر حتى هدأ أحمد تماما قبل أن يستقدم والديه للتعامل مع الأمر.

والدتهما كانت أول من كسر حاجز الصمت، وجهت حديثها لابنتها قائلة بحزم: «هل تعلمين عقوبة قذف المحصنات في الإسلام؟ هل لديك أربعة شهود على مثل ذاك الاتهام الذي قذفتها به؟ هل فكرت ولو للحظة واحدة قبل أن تخبري أخيك أن تتحدثي معها هي؟ لماذا لم تطيعي زوجك

عندما نهاك عن ذلك؟ ألم تساندك هدى في حملك عندما كنت وحيدة هنا دون سند؟ فلماذا تركتها وحدها تعاني تعب الحمل وذل الاتهام!».

ثم توجهت بحديثها إلى ابنها: «وأنت أيها الرجل الهمام، هل أخبرهم بما دار بيني وبين زوجتك يوم زفافكما؟ أخبرني... متى ظلت تلك المسكينة وحدها لتفعل ما اتهمتماها به؟ على حسب علمي لم تفترقا وكنتما معا دائما! كيف سمحت لأي من كان أن يخوض في عرضك وتصدقه؟ هل تعرف شيئا عن زوجتك الآن؟ هل تدري شيئا عن جنينكما وهل استمر الحمل أم فقدته؟ لو أن هناك عذرا قد التمسه لسارة، فلا عذر لك عندي!».

دموع سارة كانت دليل ندمها، أما أحمد فقد صمت تماما، حيرة شديدة سيطرت عليه، حيرة رآها والده في عينيه فعلم أن الكلام لن يجدي نفعا دون دليل ملموس؛ ولأن خبرته في الحياة تؤكد له براءتها، فقد قرر الذهاب مع ابنه لإعادة الفحوص والتحاليل مرة أخرى، لم يملك أحمد القدرة على الاعتراض، فرضخ لرغبة والده وذهب معه ومحمود إلى المشفى.

وبعد أيام قليلة، ظهرت نتيجة الفحص والتي أكدت خطأ النتائج السابقة.

لم يدر أحمد هل عليه أن يفرح أم يحزن، أن يضحك أم يبكي! لم يدر أصلا ما الذي يجب عليه فعله.

التزم والده الصمت التام في الأيام السابقة ولكن بعد أن عرف نتيجة الفحص من ابنه، لم يزد عن جملة واحدة، اذهب لزوجتك الآن وبعد ذلك نتحدث.

هل يمكنه حقا أن يذهب إليها؟ أيذهب إليها بعد أكثر من ثلاثة أشهر ذاقت فيها مرارة الوحدة والتعب والظلم؟ هل يمكنها أن تسامحه؟

نظر لوالده يطلب العون، ولكنه أشاح بوجهه قائلا: «هي معركتك وحدك، إما أن تكسبها أو تخسر نفسك للأبد».

بخطوات متثاقلة اتجه نحو بيتها، طرق الباب عدة مرات دون جدوى، هل تراها في الحرم؟ أم تراها تشتري احتياجاتها؟ لم يكن يعلم أن الأوان قد فات وأنها قد ذهبت بلا رجعة.

ظل مترقبا حضورها حتى تأخر الوقت، لكنها لم تعد، ترى هل أصابها مكروه؟

اقترحت والدته فتح الباب عنوة فقد يكون قد أصابها مكروه في الداخل وحدها. ذكرته كلمة والدته بموقف ما...

يوما ما أعطته زوجته سلسلة مفاتيح تنتهي بقلب ومفتاح.

نظر لها وابتسم قائلا: «ما أجملها، رقيقة مثلك!».

ببساطة قالت: «هما لك، قلبي ومفتاحه».

ضحك لقولها، وقال: «فهو قلبك إذًا، فماذا عن المفتاح؟».

هذا مفتاح شقتي، حتى إذا ما أغضبتني وتركت لك البيت تأتي لتأخذني عنوة، وتذكرني بآية: «لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ»[١٤].

نظر لها بحب قائلا: «تفترضين أشياء لن تحدث أبدا!».

آلمته الذكرى كثيرا، لم يغضبها فقط، لكنه ذبحها واتهمها في شرفها، هل تراها تنتظر؟

أفاق من شروده على والدته تطلب منه مرة أخرى فتح الباب عنوة، لكنه نظر لها قائلا: «إنه يمتلك مفتاحا للشقة»، طلب منها أن تصحبه، ففعلت.

١٤- سورة الطلاق الآية ١.

بمجرد أن دخلا الشقة شعر بروحها، اشتم رائحة دموعها فيها، هل للدموع رائحة حقا، أم تراه يتوهم!

أضاء الأنوار التي أظهرت أن أحدا ما لم يطأ المكان منذ فترة ليست بالقليلة، نادتها والدته فلم تجب، دخل إلى غرفتها فلم يجدها، ولكنه وجد على مرآتها عبارة: «رسالتي الأخيرة لك يا أحمد في الدرج الأول».

نظر لوالدته بهلع، أفزعته كلمة: «رسالتي الأخيرة»، ترقرق الدمع في عيني أمه، لكنها حثته على إحضار الرسالة.

زوجي الحبيب،

أحمد الله أنك تقرأ رسالتي الآن، فهذا يعني أن الله قد برأني أمامك.

مضى شهر وعدة أيام انتظرتك فيها، لكنك لم تأتِ، ترى كم مضى من الوقت لتتأكد من براءتي؟ شهور أم سنوات يا أحمد؟

أتدري؟ كنت أنتظر اليوم الذي ستعرف فيه أنني كذبت عليك بشأن مرضي، وكنت أبحث في داخلي عن كل ما يمكنني فعله لأسترضيك، لكن لم أظنك ستعرف بتلك الطريقة، ولم يخطر في بالي يوما أن تؤول بيننا الأمور إلى ما آلت إليه.

هل حقا ظننتني زانية حقا يا أحمد؟ كيف صدقت في ذلك؟ كنا معا طول الوقت، ألم تسأل نفسك متى وكيف حدث ذلك؟

نبذتني من حياتك وألقيت بي وحدي في بحر تلاطمني فيه الأمواج، انتظرتك تأتي لتنتشلني وتنقذني، ولكنك لم تأتِ، حاولت أن أتحدث معك، لكنك رفضت، وبعد أكثر من أسبوعين أفقت من غفوتي، ووجدتني وحيدة منبوذة منك متهمة بالزنا!

لم أكن قد بكيت، وكأنني أحاول بكبت دمعي أن أحفظ ما تبقى من أشلاء كرامتي المهدرة على أعتاب بابك، آلمني أن أرى براءتي في نظرات محمود المشفقة، وأرى في عينيك نظرات الاحتقار والاتهام!

انتبهت أن قواي تخور، فهرعت إلى المشفى لتلومني الطبيبة على حالي وتنذرني بفقدان جنيني، وقتها فقط بكيت... انهرت... هو ما تبقى لي منك، فهل أضحي به أيضا؟ تضرعت إلى الله أن ينقذه لأجلي، طلبت مني الطبيبة أن أمكث في المشفى عدة أيام حتى تستقر الأمور، ففعلت، وانتظرتك مرة أخرى، ومرة أخرى لم تأت.

أصعب ما يمكن أن يمر به المرء هو الخذلان، وقد خذلتني...، وخرجت من المشفى إلى الحرم، وأقسمت على الله فيه أن يتم حملي على خير لأحمل بين يدي قطعة منك، واتخذت قرار الرحيل كذلك، فلم يعد بإمكاني أن أكون بجانبك وبيني وبينك مسافات لا حصر لها. فكرت في الاتصال بوالديك، فأنا على يقين أنهما لم يكونا ليصدقا أي شيء عني، ولكني تراجعت... أتعرف لماذا؟ لأنني لم أرد أن أكرهك، فلو رأيت براءتي في أعين الجميع ولست منهم لكنت قد كرهتك للأبد، وددت أن يظل قلبي ينبض بهواك حتى النهاية.

أتدري يا أحمد؟! قد أكون أحببتك، وتعلقت بك أكثر مما ينبغي فأرادني الله أن أذق مرار التعلق بغيره.

ادع الله لي أن يتم حملي على خير ويرزقني الذرية الصالحة، وأن يلهمني القوة الكافية لأحيا دونك.

لا تحاول البحث عني، فلن تجدني مهما حاولت، ربما أسامحك وأعود

يوما ما، لكن إن قدر الله أن يبتليني بفقد طفلي، فلن أسامحك ما حييت، ولن أعود.

أخيرا: أخبر سارة أنني قد سامحتها، فكيف لها أن تثق بي بينما لم تفعل أنت؟ واشكر لي محمود من كل قلبي، فهو الوحيد الذي وثق في بينما تخلى عني زوجي، وأخبره أنني أسأل الله أن يعينني على رد هذا الدين.

أحبك... اشتقت إليك...

يومان أغلق على نفسه يقرأ رسالتها له، أعاد قراءتها مرارا وتكرار وكأنه يجلد نفسه بسوط كلمات خرجت من قلب نازف، هل حقا فقدها؟ لا، لم يفقدها، بل أضاعها، كيف أمكنه أن يصدق عليها ذلك، كيف هانت عليه، وأين ذهبت؟ وكيف حالها الآن؟

بحث عنها في كل المشافي والفنادق في العزيزية وما حولها، اتصل بمن يبحث له في فنادق المدينة، ولم يجدها.

انتفض فجأة كأنما تذكر شيئا، ارتدى ملابسه وخرج على عجل دون أن يخبر أحدًا، لابد أن يرى ماجد، بالتأكيد يعرف مكانها، فمن لها سواه؟

استقبله ماجد مرحبا، مما زاد من ارتباكه، فهذا الترحيب لا يوحي بأنه يعرف ما حدث.

بحث عن كلمات مناسبة ليبدأ بها حديثه، ثم قال: «ماجد هل اتصلت بك هدى؟».

نظر له ماجد نظرة ارتياب وقال: «ماذا حدث يا أحمد؟ هل هناك مشكلة؟».

تأكد أحمد في هذه اللحظة أنه لا يعرف عنها شيئا، حاول التهرب والانصراف، لكن ماجد لم يتح له الفرصة.

أطرق برأسه، ثم روى له ما حدث وحاول أن يتخير الألفاظ حتى لا يسيء لزوجته أكثر مما فعل.

صرخ فيه ماجد وأمسك بتلابيبه: «كيف تجرأت أن تظن بها هذا الظن؟ كيف أمكنك أن تظل طوال هذه الفترة لا تعرف عنها شيئا؟ ألسنا أهلها؟ لماذا لم تواجهنا وتتصل بنا وتطلب منا التصرف؟ أليست هذه شيم الرجال؟».

كنت أعلم أنك أحمق وأنك لن تصنها، لكنها وثقت بك، وكذلك فعل أبي، وقد خنت ثقتهما.

ثم أفلته من بين يديه، وظل يجول في الغرفة، أين تراها ذهبت، ولماذا لم تأت إليه؟ بل السؤال كيف تجاهل السؤال عنها طيلة الفترة السابقة؟ أليست جزءا من مسؤولياته التي أوصاه بها والده؟

أين بحثت عنها؟ هل اتصلت بـ «نور» أو بـ «ميا»؟

لم اتصل بهما، فلا أملك وسيلة اتصال بهما، كما أن هدى أغلقت صفحة «الفيسبوك» خاصتها ولم يعد بإمكاني معرفة صفحة نور، أما «ميا» فلا أظنها تذهب إليها!

بل احتمال ذهابها لـ «ميا» أكبر من نور، على الأقل «ميا» عادت للمملكة منذ فترة.

نظر له أحمد باستغراب، كان يريد أن يسأله: «كيف يمكن لهدى أن تكون لها علاقة بتلك الفتاة!».

وكأن ماجد قد فهم ما يقصد، نظر إليه وقال له: «يبدو أنك لا تعرف قصة ارتباطهما معا، هل تعرف «ميا» أصلا؟».

أجابه بخفوت: «كل ما أعلمه قصتها مع خالد، ثم عودتها لبلادها بعد خسارتها لحملها».

«ألم تعلم أنه أثناء إقامة هدى معهم، توطدت علاقتها بهدى وأسلمت بسببها؟! بعد ذلك تمكنت هدى من إقناع خالد بأن يتزوجها، فها قد أصبحت مسلمة ويمكنه الزواج منها، لكن بعدما فقدت المسكينة جنينها، رفضت الزواج منه واعتبرته مثالا سيئا للمسلمين، فأعطتها جدتي مبلغا من المال لتبدأ به حياة محترمة في بلدها، وظلت على اتصال بهدى؛ حيث كانت تعلمها عن الإسلام، مؤخرا عرفت أنها عادت للمملكة لأنها تريد أن تقضي حياتها في مكة ونظر إليه غاضبا، ثم يأتي مثلك ليطعن في شرفها!».

زادته كلمات ماجد هما على هم وغما بغم، لكنه حاول التماسك قائلا: «فهل تعرف عنوانها؟».

«وإن كان فلن أخبرك به، وإن وجدتها لن أخبرك دون إرادتها، عليك أن تستعيدها كما أضعتها».

ثم تحدث لنفسه قائلا: «سوف أتوصل إليه وإن لم تكن هناك، فلن أهدأ حتى أصل إليها».

****

شعرت أن أحدا ما ينظر إليها فرفعت رأسها عن جهاز الحاسوب الذي تعمل عليه، لتجده واقفا أمامها... انتفضت هدى من مكانها عندما رأته...

ماجد؟! كيف عرفت مكاني؟

نظر إليها نظرة لوم قائلا: «هل ظننتِ أن ذلك صعبا؟ متى ينتهي دوامك، يجب أن نتحدث».

نظرت له بارتياب وقالت: «هل أتيت وحدك؟».

أدرك أنها تسأله عن أحمد، فأجابها: «اطمئني، لم أخبره شيئا».

تنفست الصعداء، وسألته عن محل إقامته، ثم أخبرته أنها ستمر عليه بعد انتهاء دوامها.

نظر لها بشك، فوعدته أنها ستفعل.

وقد كان، فبعد أن أنهت دوامها ذهبت إلى الفندق الذي يقيم فيه، وطلبت من موظف الاستقبال أن يخبره أنها بانتظاره.

نزل إليها مسرعا، وبادرها بالسؤال: «كيف أمكنك السفر دون أن تخبريني؟ ألست مسؤولة مني؟».

«اهدأ يا أخي واجلس ودعنا نتحدث، أخبرني أولا: متى قابلت أحمد وكيف عرفت مكاني؟».

قص عليها حضور أحمد لزيارته، ثم قال: «بعد ذهاب أحمد، كان أول ما خطر بذهني سفرك، بالطبع كنت متأكدًا من عدم سفرك بالجواز المصري، فطلبت من المحامي أن يبحث عن الجواز الأمريكي، وبالفعل عرفت موعد سفرك وجهة وصولك، توقعت أن تقيمين في بيتك لكنك لم تفعلي، فحاولت الوصول لـ «نور»، فقد كنت متأكدًا أنك ستتواصلين معها بعد وصولك، وبمجرد أن عرفت مكان عملها، حجزت تذكرة الطيران وأتيت، سألت عنها في الاستعلامات فعلمت أنها ليست موجودة، وبطريقتي تجاذبت أطراف الحديث مع أحد العاملين، وأخبرته أنني أريدها في أمر شخصي، فأخبرني أنه يمكنني التحدث مع صديقتها المقربة»، ثم ابتسم وقال: «صعدت لمكتب صديقتها فوجدتك أمامي».

نظرت له بامتنان، ثم قالت: «هل أخبرت أحمد بمكاني؟».

«أردت التحدث معك والاطمئنان عليك أولا».

«قبل أي شيء عدني أنك لن تخبر أي شخص بمكاني، وخصوصا أحمد».

«اسمعيني يا هدى، لن ألتمس أي عذر له، لكن يتحتم عليَّ أن أخبرك أنه في أسوء حالاته، نعم أخطأ خطأ كبيرا في حقك، لكنه ندم عليه ولم يترك مكانا في المملكة إلا وبحث عنك فيه، ومازال يبحث عنك حتى هذه اللحظة».

«وكيف وجدتني أنت؟ من يهتم لأمر أحد يعرف طريق الوصول إليه، مازال أحمد يبحث في الطريق الخاطئ، كما أنني لم اتخذ قرارًا بشأن حياتي معه بعد».

«وماذا عن طفلكما؟».

«ماذا عنه؟ أسأل الله أن يتم حملي على خير ويرزقني إياه سليمًا معافى».

«وماذا عن حقه فيه؟».

«لن أدخل في مهاترات وجدال بلا معنى يا ماجد، سأطلب منك أمرين، أولهما: أن تعدني ألا يعرف أحد مكاني وخاصة أحمد، والثاني: أن تنسى وجودي تماما».

نظر إليها بحدة قائلا: «أما بخصوص أحمد، فلك حرية الاختيار، ولكن ماذا عني؟ أنت أختي يا هدى!».

«لا لست أختك يا ماجد، ولا أريدك أن تحمِّل نفسك ما لا تطيق. فعل عمي صالح من أجلي الكثير، واستكملت أنت مسيرته ولم تقصر معي في شيء، وطوال عمري لن أتمكن من رد جميلكما، لكن في النهاية يا ماجد، لا

يصح إلا الصحيح، والصحيح أن مثل هذه الصلة لا تصح شرعًا، فأرجوك لا تحاول التواصل معي مرة أخرى».

نظر لها متألمًا، كان يعرف جيدا الأسباب التي دعتها لقول ذلك، لم يكن شيئًا مما ذكرت، وهو يعلم ذلك جيدًا، كانت تحاول أن تحافظ على حياته ولا تكون سببًا في مشاكل فيها، لم يجادلها في شيء واكتفى بالصمت.

هي تعلم جيدا أنه لن يصدقها، ولكن وجب عليها فعل ذلك، أولا: هي تعلم مشاعره تجاهها، ولا تريد أن يستغل الشيطان ظروفها ليوسوس لهما بما يغضب الله ولو كان نظرة محرمة، كما أنها تعلم أن زوجته تغار عليه منها كثيرًا، ولذلك لا تريد أن تتسبب له في مشاكل، ولا سيما وهي تعلم أنها ستعود يوما لأحمد، طال الزمن أم قصر هي تشعر بذلك، وهي تعلم مدى غيرته من ماجد، فلا تحب أن تضايقه حتى في غيابه.

«سوف أغير مكان عملي يا ماجد، وكذلك اسمي، فأرجوك لا تحاول البحث عني مرة أخرى، كما أن ذلك يتيح لك أن تجيب أحمد صادقًا أنك لا تعرف عني شيئا، إذا ما سألك عني، أقدر لك كثيرا بحثك عني واهتمامك بي، لكن كما قلت: لا يصح إلا الصحيح».

«عديني أن تلجئي إليَّ متى احتجت ذلك، ولا تترددي في ذلك أبدا».

«أعدك أن أفعل ذلك إذا ما وفيت أنت بوعدك».

«أعدك».

****

(١١)

«أخبروا الأشياءَ المُتأخرة أنّ قُدومها لم يعّد مُرحبًا به فقد فاتَ أوان اللهفةِ، وأنّ مجيئها الآن بعدَ انطفاء الشغف لن يجعلني ألتفت مهما بلغت من جمال، فللانتظار المُفرط ضريبة»[١٥].

قرأت هدى تلك الكلمات بينما كانت تعمل على ترجمة إحدى الكتب، استوقفتها كثيرا تلك الكلمات. فلأول مرة بعد سنوات قضتها وحدها مغتربة تهزها كلمات.

للانتظار المفرط ضريبة! حقيقة تشعر بها وتعيشها، ولكن هل حقا فات أوان اللهفة وفقدت الشغف؟

طوال السنوات السابقة لم تتوقف يوما واحدًا عن التفكير في زوجها، الشخص الوحيد في هذا العالم الذي ملك قلبها وعقلها، وأهداها قرتي عينيها: «حسام وحياء»، ولكنه أيضا نفس الشخص الذي أهانها وأهدر كرامتها.

مع كل دقة على بابها كانت تنتظره، في كل وجه مر أمامها بحثت عنه، تمنت لو يعود إليها، تعلم أنه يبحث عنها، ولكنه لا زال يبحث في الطريق الخاطئ، تتابع دائما صفحته على «الفيسبوك» وتقرأ ما يكتبه عنها، اعتذر لها آلاف المرات وناشدها أن تعود، أو أن تترك له خيطا يرشده إليها، كان آخر ما كتبه لها «كيف حالك يا كل حالي؟!»

كانت قد غيرت عملها واسمها كما أخبرت ماجد، سمت نفسها باسمه «هدى أحمد»، خافت أن يضعف ماجد يوما ويخبره بمكانها، فغيرت عملها

١٥- أحمد خالد توفيق

واسمها والولاية التي تقيم فيها من الأساس، لكنها اختارت أن تسمي نفسها باسمه، تماما كطفليها، علّه يجدهم يوما.

قطعت نور حبل أفكارها قائلة: «إلى متى يا هدى؟».

نظرت لها متسائلة عما تعني.

أجابتها دون مواربة: «أربع سنوات مرت عليك هنا، لم تتمكني من نسيانه ولو للحظة، انظري إلى حالك يا هدى، أنت تتحدثين عنه مع حسام وحياء وكأنه معكم، وماذا بعد؟ إما أن تنسيه وتبدئي حياتك من جديد أو تعودي إليه، لكن آن لهذا الوضع أن ينتهي».

«ليتني أملك قراري يا نور!».

«أنت لا ترغبين في مثل هذا القرار من الأساس، أنت تعرفين أنه عرف خطأه وندم وبحث عنك، ومع ذلك تصرين على الاستمرار في العقاب؟».

ضحكت بعصبية وقالت: «بحث عني! لقد وجدني ماجد بعد أقل من شهر من معرفته بالأمر، من يريد أن يصل سيصل».

دعيني أسألك سؤالا: «إلى متى سيصدق طفليك أن والدهما مسافر ولا يعود؟».

نظرت لها بحيرة ولم تجب.

لن يطول الوقت يا هدى، وخاصة أنك علقتهما به تماما مثلما أنت متعلقة به، طفلاك يعرفان والدهما جيدا من صوره الموجودة في كل ركن، ومن حديثك عنه الذي لا ينقطع، وقد أخبرتني أنهما لا ينفكا يسألان عنه، فإلى متى؟ كما أن العمر يمر بكِ وبه، فإن لم تكملا حياتكما معا فليبدأ كل منكما حياة جديدة أفضل له!

اختنق صوت هدى بالبكاء، نور معها كل الحق... إلى متى؟!

ومع ذلك هربت من أسئلة صديقتها وقالت: «أشعر بالعطش، هل ترغبين في تناول بعض العصير؟».

نظرت لها نور بيأس، وقالت: «لا بأس».

ذهبت هدى لإحضار العصير بينما دق جرس الباب.

«هل تنتظرين أحدا يا هدى؟»

«لا يا نور، انظري من القادم رجاء».

فتحت نور الباب لتجد أمامها من ظنت أنها لن تراه يوما!

****

اضطرب لدى رؤية نور، وظهرت خيبة الأمل على وجهه. بدا كأنه توقع أن شخصا آخر سيفتح الباب، تمالك نفسه واعتذر بلباقة قائلا: «يبدو أنني أخطأت العنوان، أعتذر». ثم استدار لينصرف.

«أستاذ أحمد».

نطقتها نور، بعد أن استوعبت الأمر.

تسمر أحمد في مكانه واستدار لها بسرعة قائلا: «بلى، أنا»، ثم استدرك قائلا: «هل تقابلنا يوما؟».

تهللت أساريرها وقالت: «لم نفعل، ولكنني أعرفك جيدا»، ثم غمزت له ضاحكة: «أنتظر هذه الزيارة منذ أربع سنوات يا أخي، تأخرت كثيرا!».

فاجأته كلماتها، ولكنها بعثت في نفسه أملا أنار وجهه وجعلته يبتسم قائلا: «أن تأتي متأخرا خير من ألا تأتي!».

«من الطارق يا نور؟».

وكأن صوتها قد روى جدب قلبه، وأعاد الحياة لزهرة ذبلت فحيت وازدهرت!

بحث عن مصدر الصوت بقلبه قبل عينه، وانتبه على صوت نور تهمس له: «استعد لمعركة عمرك».

خرجت هدى من المطبخ تحمل كوبي العصير اللذين سقطا من يديها إثر رؤيته!

تسمرت مكانها، هل ما تراه حقيقة أم أنها تتوهم، لم تكن قد استوعبت بعد الموقف حين وجدته أمامها مباشرة وقد أفسحت له نور الطريق ليدخل.

كسر حاجز الصمت أولا ونظر إليها بشوق ولهفة قائلا: «كيف حالك يا كل حالي!».

مرت السنون الماضية أمامها كفيلم سينمائي، تذكرت كل لحظة مرت عليهما معا، ثم سنين غربتها، أغمضت عينيها للحظة ثم فتحتهما قائلة: «كيف وصلت إليَّ؟».

كان رد فعلها متوقعا بالنسبة إليه، لذا فقد ابتسم قائلا: «وهل ظننت أن قلبي لن يرشدني إليك؟».

جلجلت ضحكتها قائلة: «قلبك؟ وأين كان قلبك طوال أربع سنوات؟».

أنبأته ضحكتها المجلجلة بالصراع الذي يعتمل داخلها، علم أنها على وشك الانفجار، تذكر همسة نور: «استعد لمعركة عمرك!» بالفعل هي معركة عمره، ولن يخسرها بإذن الله.

«وجدت مع سارة إحدى الروايات المترجمة، نظرت في كلماتها فلم أشك للحظة أنك المترجمة»، ثم أردف باسمًا: «سلمت يمينك، من يقرأ الرواية بالعربية لن يشك أنها مترجمة».

تجاهلت ما قال وأعادت سؤالها: «لم تجب عن سؤالي بعد، كيف وصلت إليَّ؟».

«تواصلت مع دار النشر طالبا منهم عنوان المترجم، وبمجرد أن حصلت عليه حجزت وأتيت، صحيح أن الاسم كان مختلفا، لكنني كنت متأكدا أنكِ أنتِ».

ابتسمت بسخرية مريرة قائلة: «هلمي يا نور لأعرفك على زوجي العزيز الذي نسى وجودي لأربع سنوات لكنه لم ينس أسلوبي في الكتابة، وبمجرد أن قرأ كلمات كتبتها أتى مهرولا!».

آلمته كلماتها، كيف يمكنها أن تظنه نسيها!

«يعلم الله أنني ما نسيتك لحظة واحدة يا هدى، و....»

قاطعته قائلة: «رجاء لا أريد أن أسمع شيئا، فقط أخبرني ماذا تريد، ولماذا أتيت؟».

«لماذا أتيت! أتيت لأراك وأطلب منك الصفح».

«أما عن رؤيتي فقد رأيتني، وأما عن الصفح، فالله أسأل أن يصفح عنا جميعا».

شعرت نور أنه يجب عليها الانصراف لتتيح لهما حرية الحديث، فاستأذنت في الانصراف، ولكن هدى أمسكت بيديها قائلة: «لا تتركيني وحدي».

أحست نور أنها تسمع نبضات قلب صديقتها، كما أن يديها باردتان تماما، تعلم ما يعتمل في قلبها ولا سيما أنهما كانتا تتحدثان عنه قبل مجيئه، لكنها مع ذلك تعلم أن عليها الانصراف.

نظر أحمد لزوجته وهي تمسك صديقتها، كأنها طفل هرول إلى أمه يحتمي بها من خطر محدق، هل تخشاه حقا؟ ألم يكن ملاذها يوما؟

ربتت نور على كتفها وقالت موجهة كلامها لأحمد: «هلا جلسنا لنتحدث».

جلست هدى ملتصقة بنور كأنما تستمد منها قوتها، هل حقا تخاف من أحمد، أم تخاف من ضعفها تجاهه؟

لو تركت لنفسها العنان لألقت بنفسها بين ذراعيه وظلت تصرخ وتبكي لتعوض نفسها عن البعد والحرمان، رغم كل ما كانت تتحدث به مع نور منذ قليل إلا أن رؤيته أوهنت قواها، تعلم علم اليقين أنه مازال يملك قلبها وعقلها، لكن رؤيته أعادت لها ذكرى كرامتها المهدرة وكبريائها الجريح.

نظرت إليه بعد أن هدأت قليلا وقالت: «والآن، ماذا بعد؟».

نظر إليها صامتا. فهمت أنه لا يريد التحدث في وجود نور، فقالت له: «يمكنك التحدث أمام نور دون قلق، هي صديقتي التي لم تتركني يوما، ثم نظرت إليه نظرة ذات مغزى قائلة: «ولم تظن في الظنون وصدقتني ووثقت بي حينما... حينما تخلى عني الجميع».

بقدر ما أوجعته كلماتها بقدر ما أسعده أنها مازالت تفهمه من نظرته، كانت محقة فيما قالت، وقد فهم من كلمات نور التي همست له بها عند رؤيته أنها أقرب ما تكون لزوجته.

«هلا استمعت إليَّ دون مقاطعة حتى أنهي كلامي؟».

ساخرة قالت: «بالتأكيد، لطالما فعلت!».

تجاهل نبرة السخرية في كلامها، وحاول أن يبدو صوته هادئا قدر الإمكان وقال: «أقر أنني أخطأت في حقك خطأ كبيرا يا هدى، ربما لو ظللت أعتذر عنه عمري بأكمله ما استطعت، ولن أكذب عليك وأخبرك بأنني انتبهت لذلك مبكرا، بل تأخرت كثيرا حتى فقدتك، لم أترك مكانا واحدا في المملكة إلا وبحثت عنك فيه، كنت قد استبعدت سفرك لأن جواز سفرك معي، نسيت في خضم الأحداث أن لديك جنسية أخرى.

وبعد ذلك بفترة وجدت صورة من جواز سفرك الأمريكي ضمن بعض

الأوراق، واستنتجت سفرك به، ولكن الأمر استغرق ثلاثة أشهر حتى حصلت على تأشيرة دخول لأتمكن من السفر، طوال تلك الشهور كنت أحاول إيجاد أي خيط يوصلني إليك، لكني فشلت، ثم أتيت إلى نيويورك وحاولت إيجادك من خلال أحد مكاتب البحث، كل ما استطعت معرفته تاريخ وصولك وأنك كنت حبلى وعملت مترجمة في إحدى وكالات الأنباء ثم اختفيت بعد الولادة. بالطبع علمت اليوم أن ذلك كان بسبب تغييرك لاسمك الثاني، وعدت أسوء حالا مما سافرت، قضيت أسوء أيام حياتي دونك، كما أن عذاب الضمير كان ينهشني، سنون مرت عليَّ أتجرع فيها مرارة الفقد والوحدة وعذاب الضمير، كنت أعلم أنك تتابعي «الفيسبوك»، لذا كنت أكتب لك رسالة يومية أنشرها عليه، وكنت متأكدا من قراءتك لها، ظننتك ستعودين بعد فترة كما أخبرتني ولكنك لم تعودي قط، ومنذ حوالي أسبوع رأيت الرواية مع سارة ولم أستطع أن أتأخر أكثر، أتيت وكلي أمل أن تصفحي عني وتعودي معي، لم أنساكِ لحظة واحدة، أقسم لك أنه ما مر يوم دون أن أفكر فيك فيه، وأنني قد دفعت ثمنا فادحا لخطأي، فهلا غفرت لي؟!».

بهدوء قالت: «هل انتهيت؟».

حرك رأسه إيجابا، فانفجرت فيه قائلة: «أي ثمن هذا الذي دفعته فادحا؟ لمجرد أنك عشت وحيدا يؤنبك ضميرك فقد دفعت ثمنا فادحا! لا يا أستاذ أحمد الأمر ليس كذلك بالمرة، وحدتك كانت وحدة اختيارية، يبدو أنك آثرت الابتعاد عن أهلك، أما وحدتي أنا فكانت إجبارية، كنت تعلم أنه ليس لي سواك، ومع ذلك نبذتني وألقيت بي خارج حياتك، أقسمت لك أنني بريئة ولكنك لم تصدقني، هل فكرت يوما كيف مرت عليَّ شهور الحمل

وأنا وحدي؟ هل فكرت يوما من كان بجانبي وأنا أضع طفلك، لولا نور يا أحمد لست أدري كيف كانت الأمور لتحدث، الثمن الذي تتحدث عنه أنا دفعته أضعافا مضاعفة، عشت وحيدة مغتربة منبوذة من زوجي، الشخص الوحيد في هذه الدنيا الذي شغفني حبا حتى لم أعد أتخيل حياتي دونه، لكن يا للعجب عشت دونه أربع سنوات، ثم تأتي بمنتهى البساطة لتخبرني أنك تعذبت دوني، وتنتظر أن ينفطر قلبي عليك وألقي بنفسي بين ذراعيك ونعود لنحيا معا مرة أخرى! آسفة يا أستاذ أحمد، حياتي استقرت دونك، ولا أريد أن أعود لحياة سابقة تهوي بي إلى سابع أرض بعد أن تجعلني أحلق في أعالي السماء!

«أنهت كلماتها وهي تجهش في البكاء، حاول أن يضمها إليه ولكنها دفعته بعيدا وهرعت إلى غرفتها».

نظر إليها وهي تبتعد وقد شعر بالعجز، انتبه إلى صوت نور وهي تقول له: «لا تصدقها، لم تستقر حياتها يوما دونك، لم يمر علينا يوم دون أن تتذكرك فيه، لم تتوقف يوما عن حبك، لكن جرحها مازال ينزف، وسيظل ينزف طالما أنت بعيد عنها، وحدك يمكنك أن تضمد جروحها، ولكن لتفعل ذلك أمامك معركة كبيرة فلا تنسحب، رؤيتها لك اليوم نكأت جرحها كمن سكب على جرح مفتوح «زجاجة كحول»، وبقدر الألم الذي شعرت به بقدر ما كان ذلك مهمًا لتطهيره».

أتظنينها ستغفر لي؟

أما عن اتهامك لها فقد غفرته لك والتمست لك ألف عذر فيه، لكنها لم تستطع أن تغفر لك عدم وصولك إليها كل تلك الفترة.

لأكون صريحة معك، لم أشعر من كلامك أنك قد بحثت عنها كما كان ينبغي لك، وصلني أن شعورك بالذنب سيطر عليك وجعلك غير قادر على البحث بشكل صحيح، استسهلت البحث من وراء الشاشات ولم تفطن أن المرأة ترغب فيمن يطوي الأرض بحثا عنها ليرضيها، ومع ذلك فالوقت لم يفت بعد، ولكن عليك خوض المعركة بكل قوة.

بالمناسبة، أنت لم تسألها عن طفليكما، وكيف هما الآن».

«لم أردها أن تظن أنني عدت لأي سبب آخر سواها يا نور... لكن ما الذي تعنيه بطفلينا؟».

«وهبكما الله توءمًا يا أحمد وليس طفلا واحدا: حسام وحياء».

شهق أحمد من المفاجأة، لديه أسرة كاملة تركها خلفه وهو يجهل ذلك!

أكملت نور: «يعرفان كل شيء عنك، هدى لا تتوقف عن الحديث عنك، وأخبرتهما أنك مسافر للعمل، وستعود يوما، بالمناسبة ولدا في نفس يوم ميلادك كما أن صورك موجودة في كل مكان بالبيت، انظر خلفك لترى».

استدار ليجد صورة زفافه وهدى موضوعة داخل المكتبة.

كما أن غرفة الطفلين بها العديد من الصور، لم تسع لنسيانك يوما، بل كانت ترسخ وجودك في حياتها وحياة طفليكما، فإذا كنت تحبها حقا فلا تبرح حتى تبلغ.

نظر لها ممتنا، لم يعرف بما يجيبها فقد دعمته كلماتها لحد لا يوصف، نظر إليها وقال: «هل يمكنني الدخول إليها؟».

نظرت له بغيظ قائلة: «يمكنك؟ بل يجب عليك ذلك، واسمع مني حاول أن تتخلى عن وداعة التعامل تلك قليلا وانقض على فريستك، ولا تدع لها مجالا للهرب، هل يمكنك ذلك؟».

ابتسم للتشبيه رغما عنه.

نظرت له وقالت: «لقد عرفت الآن لماذا سمت هدى ابنتكما «حياء»، ثم غمزت له قائلة: «ولكن انتبه فلقد سمت حسام أيضا، فاترك حياءك جانبا واحسم أمرك، فالموقف لا يحتمل الأمرين معا».

«ما شاء الله تحسنين تطويع اللغة، واستخدام مفرداتها».

ضحكت وقالت: «علمتني هدى ذلك، ثم أضافت: سأذهب لأحضر الأطفال من الروضة، سأمر أولا على أحد المتاجر وأحضر لك بعض الهدايا لتقدمها للطفلين، فليس من المنطقي أن تفعل غير ذلك، فهما لا يعرفان أي خلفيات بينكما، ثم أذهب لأحضرهما».

«يبدو أنني لن أستطيع أن أرد دينك يوما»، قالها ممتنا.

ابتسمت وانطلقت!

****

وجدها قد واربت باب غرفتها، فكر في الدخول مباشرة، لكنه تراجع وطرق الباب.

«يمكنك الدخول يا نور».

«وماذا عني؟!».

انتفضت لسماعه، كانت ممددة على سريرها تبكي عندما اقترب منها، هبت واقفة تكفكف دموعها، اقترب منها ورفع وجهها وأجبرها أن تنظر إليه.

أجهشت في البكاء وكأنها تلقي من على أكتافها حمل السنين، ضمها إليه وظل يربت على كتفها يهدئ من روعها.

ظلت تبكي حتى هدأت، وكيف لا تهدأ وقد سكنت إليه، وكأنما أفاقت من

سكرتها، أبعدت نفسها عنه ثم جلست واضعة وجهها بين كفيها، جثا على ركبتيه أمامها قائلا: «سامحيني».

رفعت وجهها إليه وقالت: «ليتني أستطيع يا أحمد، لقد خذلتني ونبذتني بعيدا عنك، كنت سكني ومسكني، وفجأة وجدت نفسي وحيدة شريدة، فإن التمست لك العذر في ظنك، فكيف أسامحك على تركك لي طوال أربع سنوات؟!».

«ربما كانت تلك السنوات عقابا من الله لي على جرمي في حقك، ولما رأى الله مني توبة نصوحة ردك إليَّ، لكن الله لن يقبل توبتي إلا إذا سامحتني، أتظنينني لم أتعذب؟ لقد اجتمع عليَّ عذاب البعد وعذاب الضمير يا هدى، رغم كل الوحدة والغربة التي كنت أنت فيها إلا أنك وجدت بعض السلوى في حسام وحياء، أما أنا فكنت أجد نظرات اللوم والاتهام في عيني أبي وأمي، ونظرات الهروب والخجل في عيني سارة، أما محمود فأصبحت أتجنب رؤيته لأن نظرته تذكرني بنبله وخستي، ماجد تجنب التعامل معي تماما ونبذني بعد أن كنا صديقين مقربين، أصبحت أمضي جل وقتي في المكتب أو الحرم حتى أرفع الحرج عن نفسي وعمن حولي. تجنبت السفر لمصر تماما وكأنني أخشى أن أراها دونكِ، صدقيني يا هدى لقد تعذبت عذابا يفوق كل تصوراتك!».

«إذًا فقد أخبرتك نور عن حسام وحياء!».

«ألم تكوني ستخبرينني؟».

«أولن تتحقق من نسبهما لك أولا؟».

نظر لها بحزن، يعلم أنها تريد أن توجعه بكلماتها.

لم يدر بم يجيبها، أشاح بوجهه عنها ليرى صورته موضوعة بجانب

سريرها، ابتسم رغما عنه. يعلم أنها مازالت تحبه كما لا يزال هو يذوب فيها عشقا، دعا الله أن يلهمه الخير وييسر أمره.

تحدثت إليه قائلة: «لا أنكر أنني ما زلت أحبك، ولكن جرح قلبي وكرامتي أكبر كثيرا من حبي، لا يمكنني العودة لاستئناف حياتي معك يا أحمد، تغير بداخلي الكثير خلال السنوات السابقة، أرى أن الطلاق هو أفضل الحلول».

بهدوء نظر لها قائلا: «لن أفعلها ما حييت، إما أن تكوني زوجتي أو أرملتي».

«حتى وإن أصررت على ذلك؟».

«هل لي أن أسألك إذا كنت ترغبين حقا في الطلاق فما الذي جعلك تنتظرين كل تلك السنين؟ لماذا لم ترسلي لي ولو من خلال السفارة برغبتك في الطلاق، ولماذا أجد صورا لي في كل مكان في المنزل؟».

«فعلت ذلك لأجل طفلينا، لم أرد أن يشعرا باليتم وأنت حي ترزق!».

«كاذبة».

«ماذا تقول؟».

أقول إنك تكذبين، ولا أدري أتكذبين علي أم على نفسك! هدى لقد طلبت مني في خطابك الأخير ألا أبحث عنك، وأخبرتني أنك قد تعودين إذا ما سامحتني، إذا كنت تلومين عليَّ لأنني أدركت خطئي بعد أربعة أشهر، فأنت لم تدركي خطأكِ بعد مرور أربع سنوات!

خطئي! هل تقول الآن أنه كان خطئي ولم يكن خطأك؟!

بل كان خطئي أولا، ثم عالجت أنت الأمر بخطأ أكبر، لن أقول لك لماذا لم تنتظريني حتى أهدأ، ولكن دعيني أخبرك أنه كان يمكنك العودة بعد

الإنجاب، لينشأ طفلانا بيننا، لكن أخذتك العزة بالإثم، فلم تكتف بالسفر بل غيرت اسمك ومحل إقامتك، أغلقت في وجهي كل الطرق التي كان يمكنني الوصول من خلالها، ثم تلوميني لأنني لم أجدك!

صرخت فيه قائلة: «نعم ألومك وسأظل ألومك ما حييت».

إذا تصرين على أن تنتهي علاقتنا بعد أن تلاقينا وقد ظن كل منا ألا تلاقيا!

آخر ما لدي لأقوله يا هدى: «سأترك لك حرية الاختيار، إما أن ننسى ونصفح ونبدأ من جديد وإما الطلاق. على الأقل بعد الطلاق يمكن لكل منا أن يبدأ حياة جديدة، مع العلم أن حسام وحياء سيمكثون معي الفترة القادمة».

زادت حدة كلامها: «وهل تعرفهما من الأساس لتظن أنهما سيمكثان معك؟ هما طفلاي وسيظلان كذلك».

ومن السبب في عدم معرفتي بهما، أنا؟

!!!!!!!!!

«على الأقل دعيني أتعرف عليهما، وأحيا بهما كما فعلت أنت، فهما طفلانا معا شاء من شاء وأبى من أبى، فإن أنتِ أصررت على الطلاق، فكما ظلا معكِ ثلاث سنوات فسيظلان معي مثلهم».

ألجمتها كلماته فلم تستطع أن تتفوه بكلمة واحدة بعد ما قاله، لم تفكر في الأمر كذلك من قبل، أسقط في يدها ولم تدر ماذا تقول.

سمعت صوت سيارة في الخارج، فنظرت له وقالت بهدوء: «يبدو أن نور قد حضرت مع حسام وحياء، أرجو ألا يلاحظ الطفلان أن بيننا مشكلة ما.

شعر برعشة خفيفة تسري في أوصاله فقال برجاء: «هدى لا تتركيني! لست أدري كيف سأقابلهما».

نظرت له بتعاطف وقالت: «اترك لنفسك العنان، ولا تقلق».

لم تكن تعرف ما قالته نور للطفلين، ولكنها كانت متأكدة من ردة فعلهما، فقد أخبرتهما بكل صغيرة وكبيرة عن والدهما بشكل جعلهما يعرفانه بأفضل ما يكون.

خرجا معا لفتح الباب، فإذا بنور قد وضعت للصغيرين غطاء على أعينهما بحيث تحجب عنهما الرؤية، ووضعت هديتين مغلفتين في ركن جانبي وأشارت لأحمد بخصوصهما، فنظر لها ممتنا.

قالت نور للصغيرين: «والآن يمكنكما فتح أعينكما ومشاهدة المفاجأة».

ارتجف أحمد من شهقة خرجت من الصغيرين اللذين انطلقا نحوه صارخين باسمه، فتح ذراعيه واستقبلهما بينهما، اختلطت ضحكاتهما بعبرات طفقت من عينيه.

انسابت الدموع من بين عيني هدى، هل أخطأت حقا بحرمانه منهما وحرمانهما منه؟ ظنت أنها كانت لهما أبا وأما، لكن يبدو أنها لم تكن كذلك.

قبلتها نور وهمست في أذنها أنها ستنصرف الآن وتعود لاحقا.

أما أحمد فقد كان بداخله فيضا متناقضا من المشاعر، فعندما أتى لم يكن يفكر سوى في هدى، لم يخطر في باله قط أن له أبناء، كيف نسى ذلك؟ يقولون إن شعور الأبوة يختلف عن الأمومة، فالأب لا يشعر بأبنائه إلا عندما يحملهم بين ذراعيه، عكس الأم التي تشعر بهم بمجرد حملها، لكنه أضاع أجمل سنين عمرهما وهو بعيد، لم يخطرا في باله من الأساس، يا له من أب جاحد!

للمرة الأولى تشعر هدى بتأنيب الضمير تجاه طفليها، هل حقا أخطأت كما اتهمها أحمد، هل أعمتها الرغبة في الثأر لكرامتها عن مراعاة مصلحة طفليها؟

كانت على يقين أن أحمد قد أدرك براءتها ومع ذلك لم تعد، كانت ترى ما يكتبه لها كل يوم ومع ذلك لم تعد.

انتبهت فجأة أن الصغيرين نسيا وجودها لرؤية أبيهما، فنظرت إليهما قائلة: «أولم تشتاقا لي أنا أيضا؟!».

جرى عليها حسام وقبلها وظلت حياء متعلقة بأبيها، نظرت إليها قائلة: «وماذا عني يا حياء؟».

ردت الصغيرة ببساطة: «أنت لن تتركيني»، وأشارت لأحمد قائلة: «أما هو فقد يتركني».

أغمض عينيه ألما فقد طعنته ابنته بكلماتها البريئة، نظر إلى هدى بعتاب يلومها فأشاحت بوجهها عنه، رفع ابنته عاليا ثم وضعها على أريكة قريبة وظل يدغدغها قائلا: «وكيف أترك أميرتي الصغيرة الجميلة».

للمرة الأولى يشعر الجميع بمعنى الأسرة، فقد فقدت هدى هذا الشعور بوفاة والديها وأخيها، وفقده أحمد بعد سفره للعمل في المملكة، أما الصغيران فكانت تلك هي المرة الأولى التي يعيشان فيها حياة طبيعية بها أم وأب معا، كان يوما رائعا للجميع.

جهزت هدى الغداء وجلسوا جميعا يتناولونه، أصر أحمد على حمل الصغيرين وإطعامهما بيده، كان يريد أن يعوض شعور الحرمان الذي عاشه دونهما، ظلت هدى تنظر إليه وهو يطعمهما، لم تشعر بنفسها وهي تضع الطعام في فمه بينما هو يطعمهما، هو كذلك لم ينتبه لذلك في حينه،

وبعفوية قال: «سلمت يداك»، وقتها انتبهت وانتبه... توقف عن المضغ وتوقفت كذلك يدها في الهواء قبل أن تتجه لفمه، قفز حسام يلتقط الطعام من يدي هدى ويضحك، انقض عليه أحمد ضاحكا وقال: «أكلت طعامي وسآكلك لقاء ذلك».

حان وقت النوم، لم يكن أحمد قد أحضر حقيبته من الفندق، فلم يكن على علم بما سيحدث طوال اليوم.

قالت حياء: «هيا يا أبي أبدل ملابسك فستنام بجانبي الليلة، قاطعها حسام قائلا: «بل سينام بجانبي، فأنا رجل مثل أبي ويجب أن ننام معا».

كانا على وشك العراك حتى فصل أحمد بينهما قائلا: «دعونا نذهب إلى الغرفة لنفكر في حل لذلك».

«ألن تبدل ثيابك أولا يا أبي؟» قالها حسام.

لم يدر أحمد بما يجيبه، فقالت هدى: «لم تصل حقيبة والدكما بعد من المطار».

ردت حياء ببراءة: «وماذا في ذلك يمكنه استعمال ملابسه الموجودة في خزانته».

نظر لهدى بتساؤل، فأشارت إليه ليوافق.

دخلوا جميعا غرفة الطفلين وضعهما في سريريهما، ثم قالت هدى سيبدل والدكما ملابسه ويأتي لكما.

ذهبت معه لغرفتها. فتحت خزانة الثياب وقالت: «اشتريت بعض الثياب لك ووضعتهم هنا كي يشعر الصغيران بوجودك دائما، يمكنك اختيار ما تريد، أم ستظن.... « قطعت عبارتها ولم تكمل، كانت على وشك توبيخه مرة أخرى لسوء ظنه بها قبلا، ولكنها أحجمت.

فهم ما تقصد رغم أنها لم تنطقه، نظر إليها بحزن ثم طلب منها أن تناوله ما تشاء ليرتديه، ناولته منامة ليرتديها فوجدها معطرة بعطره المفضل.

«سوف تجد كل ما تحتاجه في هذه الخزانة، يمكنك الاغتسال واللحاق بي في غرفة الصغيرين».

أمسك ذراعها وهي تمر بجانبه ونظر لها بشوق جارف قائلا: «شكرا على كل شيء، إذا كان وجودي يضايقك فسأذهب بعد نوم الطفلين».

باحت عيناه بما يعتمل في قلبه، وأنبأته ارتجافة جسدها بالصراع الذي تعانيه، لم يرد أن يضغط عليها، أفلتها من يديه قائلا: «هلا انتظرتني لنذهب إليهما معا، لن أتأخر؟».

هزت رأسها بالموافقة وجلست تنتظره.

رأته وقد ارتدى منامته فابتسمت وقالت: «لم تتغير مقاساتك».

ابتسم وقال: «ولم تنسها كذلك!».

أرادت أن تخبره أنها لم تنس أي شيء يخصه، أنها عاشت به طوال السنوات الماضية، أن أنفاسها كانت تخرج من بين ضلوعها صارخة باسمه، لكن عقلها رفض، فالصراع بين قلبها وعقلها في أوجه!

ذهبا معا للصغيرين فوجداهما مازالا متيقظين، ضما السريرين إلى بعضهما كي يتمكنوا من النوم معا جميعا.

ناما الصغيران بينهما، هدى على أحد الطرفين وأحمد على الطرف الآخر.

لم تر هدى طفليها بمثل هذه الحالة قبلا، ولم يتوقع أحمد أن تنقلب حياته رأسا على عقب بين عشية وضحاها.

اكتشف كل منهما أنه أضاع من عمره سنوات أربع هباء، أضاعتها هدى في الغضب وأضاعها هو في البكاء على الأطلال!

ظل الصغيران يتحدثان حتى غلبهما سلطان النوم، نظر لهما أحمد بحنان ثم غفا، ظلت هدى تنقل بصرها بينهم ثم استقرت عيناها عليه، كم اشتاقت إليه!

أغمضت عيناها متألمة ثم نهضت. شعرت أنها بحاجة لاستنشاق الهواء، فخرجت لحديقة المنزل، عندما انتقلت لهذه الولاية مع نور بعد ولادتها وانتقال نور لعمل ثابت يناسب ظروف زوجها وطفلها، اختارا استئجار بيتين صغيرين متجاورين تربطهما حديقة واحدة.

رأتها نور من نافذتها فخرجت إليها، جلست بجوارها وسألتها عن الطفلين.

«لم يكونا بحال أفضل من ذلك قبلا يا نور».

«وأنت يا هدى، ماذا عنك؟!».

وكأن كلمتها فجرت دموعها، أجابتها وهي تغالب دموعها: «لا أدري يا نور لا أدري».

أخذتها بين ذراعيها مطمئنة، وظلت تمسح على رأسها، وقالت: «أخبريني يا حبيبتي ما يدور في نفسك».

حكت لها هدى عن الحديث الذي دار بينها وبين أحمد، وعن رغبته في ضم الطفلين له إذا ما اختارت الطلاق لثلاث سنوات كما ضمتهما هي معها سنوات ثلاث، أخبرتها عن لومه إياها، ثم شكره لها على كل شيء.

نظرت لها نور بهدوء قائلة: «أتعلمين يا هدى أنني تعاطفت مع أحمد كثيرًا بعد أن رأيته!».

ماذا؟!

«وبعد أن أخبرتني بما دار بينكما أجد أن لديه بعض الحق فيما قال، دعيني أسألك يا هدى، هل فكرت يوما أنك لست ضحية؟ أربع سنوات مرت عليك بعيدا عنه، لم يهدأ غضبك يوما، أعماك الغضب عن بعض الأمور التي كان عليك التفكير بها، دعينا نروي القصة من وجهة نظر أخرى».

تعتقدين أنه أخطأ عندما ظن فيك السوء، وهو كذلك بالفعل، لكن ألم تخطئي عندما كذبتي عليه؟ نعم كان لديك من المبررات ما دفعك لفعل ذلك، لكن كان يجب عليك البحث عن طريقة أخرى غير الكذب الذي كان سينكشف يوما، تخيلي معي أنك قد أخبرته بالحقيقة وقت علمك بالحمل، ألم تكن الأمور قد اختلفت؟ لكن ما حدث أنك لم تخبريه بالحقيقة وأخبرته بالحمل فقط؛ ولأن الحقيقة كانت بينك وبين أخته، فرغما عنها ظنت فيك السوء، ونقلت ظنها لأخيها.

بالتأكيد خبرتي محدودة في التعامل مع الرجل الشرقي بسبب نشأتي هنا، ولكن مما أقرأه أتوقع ردة فعل رجل، يقال له أنت عقيم ومع ذلك زوجتك حبلى! لو كان قد سمع الأمر منك لاختلفت ردة فعله، ولكن أن يسمعه من غيرك، فهنا تكمن الكارثة.

ومع ذلك فمقارنة بما أقرأ عن سلوك الرجل الشرقي، فلقد كانت ردة فعل أحمد متوازنة إلى حد ما، فلم يقتلك كما نقرأ أو لم يبلغ عنك الهيئات الشرعية في المملكة على أقل تقدير، كان سيهدأ لو ظللت بجانبه مصرة على رأيك، أو لو لجأت إلى والديه، ألم تخبريني أنهما ما كانا ليصدقا عليكِ شيئا؟

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ اتخذت قرار السفر ونفذته بل وأغلقت في

وجهه كل الطرق التي كان يمكن أن يصل إليك من خلالها، وتركت له رسالة ألا تبحث عني فلن تجدني!

صحيح أنه كان يجب عليه أن يبحث عنك بطرق شتى ولا يستسلم، لكن من الواضح أنه قد استسلم لفكرة البكاء على الأطلال. بالطبع يستحق اللوم على ذلك، ولكنك كنت المتحكمة في الأمور بشكل أكبر.

لن أقول لك ليتك عدت إليه بعد أن أنجبت، ولكن على الأقل كنت فتحت له بابا يجدك من خلاله.

ولكن انظري إلى تقدير الله، تترجمين رواية فيقرأها فيعرف أنك أنت، فيهرول إليك طالبا الصفح!

على الجانب الآخر فرغم كل ما كان بداخلك من غضب تجاهه، إلا أنك لم تتوقفي عن حبه لحظة واحدة، ورغم أن طفليك نشآ بلا أب إلا أنك جعلتيه جزءًا لا يتجزأ من حياتهما، فصوره موجودة في كل مكان، وفي كل مناسبة لهما تحضرين الهدايا وتخبريهما أنه قد أرسلها لهما. بشكل أو بآخر زرعت مشاعرك بأكملها داخلهما، أخبرتني الآن أنك لم تريهما بمثل هذه السعادة قبلا لمجرد ظهوره، فكيف إذا عاش معهما!

نصيحتي لك يا هدى: اصفحي وانسي، ويكفي ما ضاع من حياتك الشخص الذي تذوبين فيه عشقا عاد إليك نادما يطلب العفو، عاش على ذكراك سنوات أربع، هل تظنين أنه من السهل على أي رجل تزوج قبلا أن يحيا دون زواج طوال فترة كهذه؟ فإذا كان قد تزوج فما كان لأحد أن يلمه، فكري فيما قلت جيدا يا هدى قبل أي قرار، اسمحي له بالمكوث معكم وراقبي حياتك، فإن رضيت وهدأت فاعلمي أن الغضب قد ولى والصفح قد

حان، أما إذا لم يحدث ذلك فاتخذي قرار الطلاق، وليبدأ كل منكما حياة جديدة».

انتهت نور من حديثها، وجفت دموع هدى تماما، لم تكن قد فكرت هكذا من قبل، وها هي نور تضعها أمام حقيقة تجاهلتها طوال سنوات أربع ليست ضحية، بل مخطئة.

ذهبت كل منهما لمنزلها، بعد أن شعرت نور أن هدى في حاجة للاختلاء بنفسها تردد في رأسها أبيات شعر لأمير الشعراء أحمد شوقي:

هجرت أحبتي طوعاً لأني رأيت قلوبهم تهوى فراقي
وأشتاق للقائهم كثيراً غير أني وضعت كرامتي فوق اشتياقي
وأرغب وصلهم دوماً لكن طريق الذل لا تهواه ساقي

دخلت هدى البيت لتجد أحمد جالسا يستمع لأحد المنشدين ينشد:

أبلغ عزيزًا في ثنايا القلب منزله
أني وإن كنت لا ألقاه ألقاه
وإن طرفي موصول برؤيته
وإن تباعد عن سكناي سكناه
يا ليته يعلم أنى لست أذكره
وكيف أذكره إذ لست أنساه
يا من توهم أنى لست أذكره
والله يعلم أنى لست أنساه
إن غاب عنى فالروح مسكنه

من يسكن الروح كيف القلب ينساه[١٦]

تسمرت مكانها، هل دندنت بأبيات الشعر وهي لا تشعر فأراد أن يخبرها بخطأ ظنها؟

تجاهلت ما سمعت ودخلت، أخبرته أنها خرجت لاستنشاق بعض الهواء وجلست مع نور، فأخبرها أنه قد رآها من النافذة، سألته: «ألم تنم؟».

أخبرها أنه غفا قليلا ثم استيقظ ولم يستطع النوم مرة أخرى، ربما بسبب اختلاف التوقيت، هكذا قال.

استأذنته في الصعود لغرفتها، إلا أنه قال: «إذا لم تكن لديك رغبة في النوم، فهل يمكننا الجلوس سويًّا؟».

جلسا معا صامتين، كل منهما يبحث عما يبدأ به حديثه، قطعت صمتها قائلة: «ألن تخبر أبي وأمي وسارة عن حسام وحياء؟».

نظر إليها قائلا: «وبم أجيبهم لو سألوني عنك؟».

«انتظرني قليلا».

تقدمت إلى المكتبة وأخرجت منها مجموعة من الصور والمفكرات والأقراص المضغوطة، أعطته إياهم وقالت: «سوف تجد على هذا القرص صورا يومية لحسام وحياء منذ ولادتهما وحتى أسبوع سابق، جهزتهم لتراهم عندما تعود فلا تشعر أنه قد فاتك يوما من حياتهما، أما هذه الصور فهي لأهم لحظاتهما، احتفالات ميلاد، حفلات في الروضة، حفلات أصدقاء، في المسجد وهكذا، أما المفكرات فستجد فيها توثيقًا يوميا لأحداث حياتهما.

«إذًا كنت تشعرين أننا سنكون معا يوما!».

١٦- المتنبي

«بل كنت على يقين من ذلك»، ثم تناولت صورة من بين الصور وأعطتها لأحمد قائلة: «أرسل هذه الصورة لوالديك».

نظر للصورة متفاجئًا بما فيها، كانت صورة لوالديه مع حسام وحياء، نظر لها متسائلا: «لماذا لا تبدو الصورة «فوتو شوب؟»، ومن أين حصلت على صورة حديثة لوالدي؟».

«هي صورة حقيقية يا أحمد».

!!!!!!!!!

في العام الماضي رأيت والديك جلوس في استقبال أحد الفنادق، أخذت وردتين وأعطيتهما لحسام وحياء وطلبت من نور أن تذهب معهما ليهديا لهما الوردتين وتصورهما معهما، وقد كان، ثم تركت لهما هذه الصورة مع موظف الاستقبال.

كم هي صغيرة تلك الدنيا! وهل هانا عليك يا هدى لتفعلي معهما هذا الموقف؟

أطرقت بوجهها حزنا، تذكرت ما قالته لها نور عن أن غضبها قد أعماها كيف فعلت ذلك حقا؟ كان يمكنها أن تستغل فرصة تواجد والديه لتعرفهما الحقيقة، وخاصة أن حسام يشبه أحمد كثيرًا، ولكنها تصرفت كالأطفال.

أفاقت من شرودها على صوت رسالة على هاتف أحمد، كان قد أرسل الصورة لوالده الذي رد عليه يسأله من أين حصل على هذه الصورة.

أجابه بكلمات معدودة: «حسام وحياء أحمد الشريف».

ارتفع رنين الهاتف بعد رسالة أحمد، فتح مكبر الصوت ليجيب والده الذي سأله مباشرة: «ما الذي تعنيه برسالتك؟».

«باختصار يا أبي... هذان الطفلان هما ولدي حسام وحياء، فلقد أنجبت هدى توءمًا، وقد رأتكما في العام الماضي وأرسلتهما مع صديقتها ليسلما عليكما».

جلجل صوت والده فرحا: «كنت أعلم ذلك، أقسم بالله أنني قد أخبرت والدتك أن حسام نسخة منك في صغرك، لكنها سألتني وماذا عن أخته، ولم ننتبه وقتها أنهما توءمان! لكن أخبرني ماذا عن هدى، كيف هي؟».

«بخير حال يا أبي والحمد لله، فقط أحتاج لدعائكما لترضى عني وتغفر لي»، قالها وهو ينظر لها مبتسما.

دعا لهما بالخير وتيسير الحال، ثم قال له: «لا تقلق، طالما أعطتك هذه الصورة فستسامحك، وأخبرها أننا في انتظارها!».

ابتسمت هدى رغما عنها، ثم أخفت ابتسامتها قبل أن ينتبه لها أحمد.

سألته: «متى تنتهي إجازتك؟».

«إذا كان لسؤالك علاقة بمكوثي معكم، فيمكنني الانتقال الآن...».

قاطعته قائلة: «لم أقصد ذلك أبدا، فقط أردت أن ...».

أرادت أن تقول إنها تريد الاطمئنان لوجوده معهم، ولكنها صمتت.

أجابها: «لا أبرح حتى أبلغ».

ابتسمت وقالت: «فإن لم تبلغ؟».

أجاب: «فلن أبرح».

تنهدت ثم صمتت.

سألها: «ماذا عن عملك؟».

«ماذا عنه؟ ما زلت مترجمة!».

«أقصد مكان عملك».

في البداية عملت في إحدى وكالات الأنباء التي كانت تعمل بها نور، وبعد انتقالنا معا عملت مع دور النشر التي تترجم الروايات والكتب من وإلى العربية، أعمل غالبا من المنزل، قلما أذهب للمكتب.

ابتسم وقال: «لابد لي من شكر دار النشر التي أوصلتني بك».

ظلا يتحدثان حتى موعد صلاة الفجر، أمّها في الصلاة، ثم قال لها: «لابد أنك في حاجة للنوم، لكن سؤال أخير، هل تسمحين لي بالبقاء معكم؟».

أجابت: «أنت والد حسام وحياء، وهذا حقك».

«إذا كان بقائي هنا لهذا السبب، وبهذه الصفة فقط، فاسمحي لي أن أقيم معهما في أحد الفنادق، فلن أقيم معكم بسيف الحياء».

«أرجوك يا أحمد دع الأمور تسير كما قدر الله لها ولا تحمل الأمور أكثر مما تحتمل، فوجودك لا يضيرني في شيء».

وأضافت في نفسها: «بل أهفو إليه».

****

(١٢)

الخاتمة

فكرت هدى في كل كلمة حدَّثتها بها نور، للمرة الأولى تشعر أنها على حق.

أضاعت من عمرها سنوات أربع لا لشيء سوى الغضب والرغبة في الثأر لكرامتها، نعم أخطأ أحمد في حقها خطأً كبيرا، لكنه عاد وندم.

أما هي فلم تندم، واستمرأت دور الضحية.

أما عن أحمد، فلم يختلف حاله عن حالها، حياته مع طفليه زادت من شعوره بحجم الجرم الذي ارتكبه في حقها، وولدت بداخله شعورا بالندم على جرم أكبر لم ينتبه له حتى عاش معهما، أضاع سنوات أربع من حياته بين الأطلال، أطلال حب لم يحفظه كما ينبغي فعاقبه الله بفقده، وبين أطلال الندم لم ينتبه لحقيقة أنه قد أصبح أبا، وأنه كان عليه أن يبحث عن طفله وزوجته وليس زوجته فقط، استسهل البحث من وراء الشاشات كالمراهقين ولم يبحث عنه على أرض الواقع كالفرسان.

وبين كبرياء غاضب وأطلال حب يضيع العمر!

يقولون إن الرحلة تبدأ بمعرفة الطريق، ولكن عليك اختيار الرفيق قبل الطريق، وقد اختار كل منهما الآخر رفيقا. فهل تبدأ الرحلة؟

****

شهر كامل مر على وجود أحمد معهم، شهر تغير فيه كل شيء وانقلبت حياتهم فيه رأسا على عقب، مارس أحمد دور الأب الذي حرم منه لسنوات،

واستمتع الطفلان بوجوده في حياتهما بعد أن كانا يظناه سرابا لا أمل فيه.

وعلى الرغم من أن مصير علاقتهما لم يتضح بعد، إلا أن هدى أصبحت أكثر إشراقا وسعادة، أما أحمد فقد تحولت أطلاله لبساتين عامرة وزهور يانعة، الشيء الوحيد الذي يقلقه الآن هو هدى، هل تُراها ترضاه زوجًا مرة أخرى؟ تذكر كلمات نور عندما أخبرته أن ينحي حياءه جانبا ويحسم أمره، وبعد تردد سألها ماكرا: «ألم تشتاقي إلى مكة؟».

تنهدت قائلة: «عودت نفسي ألا أتعلق بما لا أستطيع الوصول إليه، ولولا ذلك لكنت مت شوقا!».

«لمكة؟».

ابتسمت لمكره وقالت: «وأهلها».

اقترب منها وهمس لها: «فهل نعود؟».

ارتجفت من قربه وقالت بدلال: «لمكة؟».

«للسكن، فأنت مُسكّني وسَكَني وسَكِينتي وساكنتي وسكوني وسكوتي».

«أراك قد بلغت!».

اقترب منها وأحاطها بذراعيه قائلا: «عاهدتك أنني لن أبرح حتى أبلغ، وقد وفيت».

خفضت عيناها خجلا، فرفع وجهها إليه قائلا:

ونشكو بالعيون إذا التقينا فأفهمه ويعلم ما أردت

أقول بمقلتي أني مت شوقًا فيوحي طرفه أني قد علمت[١٧]

اشتعل وجهها خجلا، ولم يعد في إمكانها المقاومة، انهارت مقاومتها

١٧- أمير الشعراء أحمد شوقي

تماما، فنظر لها قائلا: «ألا تشعرين بالعطش؟».

حاولت أن تفلت من يده قائلة: «سوف أحضر الماء».

أمسك بها قبل هروبها وضمها إليه قائلا: «ما يرويني سواكِ!».

****

«قد تُرهقنا الحياة وتسرق منّا سكينةَ قلوبنا وشيئًا من سعادتنا، فنفقد إيماننا بأن غدًا سيكون أفضل، وبأن القدر يَحملُ في طياته خيرًا، قد تَخْذُلُنَا توقعاتنا، وتتحول طمأنينتنا إلى قلقٍ يُؤلم قلوبنا».

فأما بعد، فأنت بدايتي والنهاية، وفي ابتسامتك راحتي بعد كل مشقة، وفي إشراقتك نورًا يُضيء الدنيا كلها في عيناي فلا تُظلم أبدًا ... رأيتك إجابة عن كل سؤال، وفحوى كل ما بحثت عنه يومًا ... دُمت لي معنى الوطن!»[١٨].

لقائله،

تمت بحمد الله،

١٨- منقول

للتواصل مع الكاتبة

د. هبة الله محمد عاصم

البريد الإلكتروني: hebaMohammad274@gmail.com